

الباب السادس

الهجرة الكبرى

الفصل الأول

أسبابها ووسائلها

بقدر ضحينا في سبيل استكمال قصة اسبارطة وأثينة إلى قبيل واقعة مرثون بوحددة الزمان من أجل وحدة المكان . نعم إن مدن بلاد اليونان الأصلية كانت أقدم من المستعمرات اليونانية في بحر إيجه وفي جزائر أيونيان ، وإن هذه هي التي أنشأت في كثير من الحالات المستعمرات التي سنصف حياتها في هذه الفصول ، ولكن عدداً من هذه المستعمرات أضحت بما حدث من انقلاب مريك في سياق الحوادث السوى أعظم شأناً من المدن التي أنشأتها وسبقها في ثروتها وفنونها ، وبذلك لم يكن الذين أوجدوا الثقافة اليونانية بحق هم اليونان أهل البلاد التي نسميها الآن بلاد اليونان ، بل كانوا هم الذين فروا أمام الدوريين الفاتحين وحاربوا حرب المستيئين ليثبتوا أقدامهم على السواحل الأجنبية ، وأنشأوا بفضل ذكرياتهم الميسينية وجهودهم العجيبة العلوم والفنون ، والفلسفة والشعر ، التي جعلت لهم قبل مرثون بزمن طويل المقام الأول في العالم الغربي ؛ ثم أورثت المستعمرات أمهاتها من المدائن الأصلية الحضارة اليونانية .

وليس شيء في تاريخ اليونان أدل على حيويتهم من انتشارهم السريع

في جميع بلاد البحر المتوسط (*) . لقد كانوا قبل أيام هومر شعباً بدوياً متعلاً ، وكانت شبه جزيرة البلقان كلها تضطرب بحركاتهم ، ولكن أهم العوامل التي أثارت الموجات اليونانية المتتابة التي طغت على جزائر بحر إيجه وعلى السواحل الغربية للقارة الآسيوية كانت غزوات الدوريين . فقد خرج الناس على أثرها من جميع أنحاء هيلاس يبحثون عن الوطن وينشدون الحرية بعيدين عن قبضة الفاتحين المستعبدين ؛ وكان من العوامل الأخرى التي بعثت على هذه الهجرة ما في الدول القديمة من انقسامات سياسية ومنازعات بين الأسر ؛ فكان المغلوبون يختارون النفي من البلاد أحياناً ، وكان الغالبون يشجعونهم على الخروج منها أعظم تشجيع ؛ يضاف إلى هذا أن بعض من بقي على قيد الحياة من اليونان الذين اشتركوا في حرب طروادة فضلوا البقاء في آسية ؛ واستقر غيرهم في جزائر بحر إيجه حباً في المغامرات أو عجزاً عن العودة إلى وطنهم بعد أن تحطمت بهم السفن التي كانت تقلهم ، ووجد غيرهم حين عادوا إلى أوطانهم بعد أسفارهم الطويلة التي تعرضوا فيها لأشد الأخطار ، أن عروشهم قد ثلث وأن زوجاتهم قد احتضنن غيرهم ، فعادوا إلى سفنهم لينشئوا لهم أوطاناً جديدة ويجمعوا ثروات جديدة في خارج بلادهم (٢) . وعاد الاستعمار على بلاد اليونان الأصيلة ، كما عاد صنوه على أوربا الحديثة ، بمزايا عظيمة من عدة وجوه . فلقد كان منفذاً للزائدين على طاقة الأرض من السكان والمغامرين منهم ، وكان بمثابة صمام الأمان من التذمر الزراعي ، وبفضله نشأت أسواق أجنبية لغلات البلاد الأصيلة ، ومستودعات حصينة في مراكز منيعة للواردات من الطعام والمعادن . وأوجد الاستعمار في آخر الأمر إمبراطورية تجارية كان ما فيها من تبادل السلع ،

(*) قارن هذا بقول بيلير Peler : « لعل أروع حوادث التاريخ اليوناني كله وأشدها إثارة لنفس هو استعمارهم في باية أمره ! » .

والفنون ، وأساليب الحياة ، والأفكار ؛ من أقوى العوامل في نشأة حضارة اليونان المعقدة .

وسارت الهجرات في خمسة خطوط رئيسية - إيولية ، أيونية ، دورية ، يكسينية Euxine ، إيطالية . . وبدأت أقدمها في الدويلات الشمالية من أرض اليونان الأصبيلة ، وهي التي لاقت أولى الغزوات من الشمال والغرب . فقد سارت على مهل جحافل من المهاجرين من تساليا ، وثيوتس . وبوتية ، وإيتوليا ، لم تنقطع طوال القرنين الثاني عشر والحادي عشر ، مخترقة بحر إيجه ، وزحفت على الأصقاع المحيطة بطروادة ، وأنشأت فيها المدائن الاثنتي عشرة التي تألف منها الحلف الإيولي . ويبدأ الخط الثاني من خطوط الهجرة في البلوبونيز حيث فر آلاف من الميسينيين والآخيين على أثر « عودة المرقلين » ، واستقر بعضهم في أتكا والبعض الآخر في عوبية ، وخرج الكثيرون منهم إلى جزائر سكلديس ، وجازفوا باختراق بحر إيجه ، وأسسوا في غربي آسية الصغرى المدائن الاثنتي عشرة التي تألف منها الحلف الأيوني الاثنتي عشري Ionian Dodecapolis . وسار في الخط الثالث من خطوط الهجرة الدوريون الذين فاضت بهم أرض البلوبونيز ، فاستقروا في جزائر سكلديس ، وفتحوا كريت وسيريني ، وأنشأوا حافاً من ست مدن دورية Dorian Hexapolis حول جزيرة رودس . وبدأ الخط الرابع في مكان ما من بلاد اليونان واستقر من ساروا فيه على سواحل تراقية ، وأنشأوا مائة مدينة على شواطئ الدردنيل ، والبروپنتس (بحر مرمره) والبحر اليكسيني (البحر الأسود) . واتجه الخط الخامس نحو الغرب إلى الجزائر التي أسماها اليونان الجزائر الأيونية ، ثم اخترق إيطاليا وصقلية حتى بلغ آخر الأمر غالة وأسبانيا .

وليس في وسع إنسان ما أن يتصور ما قام من العقبات في سبيل هذه الهجرة الطويلة المدى التي دامت مائة عام ، أو كيف ذلت ، إلا إذا كان عطفاً واسع الخيال أو كان قوى الذاكرة لم ينس ما لقيناه نحن الأمريكيين

في تاريخنا الاستعماري . لقد كان في مغادرة الأرض التي خلعت عليها شعائر
القداسة قبور الآباء والأجداد ، والتي يحرسها الأرباب القدامى ، والخروج
إلى أصقاع غريبة لا تحميا في أكبر الظن آلهة بلاد اليونان ، لقد كان في
هذا وذلك مغامرة خطيرة الشأن ، ومن أجل هذا أخذ المستعمرون معهم
حفنات التراب من يلادهم الأصلية لينثروها فوق أرض الأقاليم الأجنبية ،
وحملوا في جد ووقار قيساً من النار من المذابح العامة في مدافنهم الأولى ليشعلوا
به النار في مواقع المدن التي أنشأوها في مستعمراتهم الجديدة . وكانوا يختارون
مواضع هذه المدن على شاطئ البحر أو قريبة منه ، حيث يمكن أن تكون
السفن - وهي الموطن الثاني لنصف اليونان - ملجأ بعضهم من هجمات
الأعداء برأ ؛ وكان خيراً من هذا الوضع عندهم أن تقام فوق سهل ساحلي
تحميها الجبال التي تصد الغيرين من ورائها ، أو على تل يكون حصناً منيعاً
في داخل المدينة نفسها ، أو أن تكون ذات ميناء في البحر يحمي لسان بارز
منه ؛ وخير من هذا وذلك أن يكون هذا الميناء الأمين على طريق تجاري
أو قريباً من مصب نهر تصل إليه السفن حاملة الغلات من داخل البلاد
لتصدر أو يستبدل بها غيرها من الغلات ، فتنتعش ويعمها الرخاء عاجلاً
كان ذلك أو آجلاً . وكانوا لا يكادون يجدون موقعاً صالحاً إلا احتلوه ،
واستولوا عليه بالحيلة إن أفلحت ، فإن لم تفلح سلكوا إليه سبيل القوة . ولم
يكن اليونان في هذه الظروف يرعون مبادئ أخلاقية أرقى مما نرعاها نحن
الآن(*) ، فكان الفاتحون في بعض الأحيان يستعبدون السكان الأولين بنفس
الدعوى المضحكة الباطلة التي ادعاها الحجاج المهاجرون طلباً للحرية .
وكان أكثر من هذا حدوثاً أن يتوود المهاجرون الجدد إلى السكان
الأوليين بما يحملونه إليهم من الهدايا ، ويخلبوا لهم بثقافتهم الراقية ،
ومغازلة نساءهم ، وعبادة آلهتهم . ولم يكن اليونان المستعمرون يعنون ببقاء
الدم(٣) . وكان في وسعهم على الدوام أن يجدوا في مجتمع آلهتهم الكثيرة

إلهاً شبيهاً بإله الموطن الحديد شبيهاً ينسر لهم التوفيق بين الإلهين : ولهم من هذا كله أن المستعمرين كانوا يعرضون ما صنعتهم أيديهم من سلع يونانية على السكان الأصليين ، ويستبدلون بها الحبوب والماشية أو المعادن ، ويصدرون هذه الغلات إلى بلاد البحر المتوسط ، ويفضلون من هذه البلاد أهمهم التي هاجروا منها ، والتي لا تنفك قلوبهم تنطوي لها مدى القرون على حب وولاء يبلغ حد التقديس .

وأخذت هذه المستعمرات واحدة بعد أخرى تتشكل وتتخذ صورة المدائن اليونانية حتى لم تعد بلاد اليونان مقصورة على شبه الجزيرة البصيقة التي كان يطلق عليها هذا الاسم في أيام هومر ، بل أضحت طائفة من المدن المستقلة مرتبطة بعضها مع بعض برباط غير متين ، ومنتشرة من إفريقية إلى تراقية ، ومن جبل طارق إلى الطرف الشرقي من البحر الأسود . وكان هذا العهد من أهم العهود في تاريخ نساء اليونان ، فلنسنا نجدهن على الدوام أكثر استعداداً مما كن في ذلك الوقت لإنجاب الأبناء . وبفضل هذه المراكز التي تفيض جيداً وحيوية وذكاء نشر اليونان في جميع أنحاء أوروبا الجنوبية نذور ذلك الترف المزعزع الدال على الخدق والدهاء الذي يطلق عليه اسم الحضارة ، والذي لولاه لما كان للحياة جمال ولا للتاريخ معنى .

الفصل الثاني

السيكلديس الأيونية

إذا سار السائح بجزراً من پيريس (پيريه) ، متجهاً نحو الجنوب ، مصاقباً ساحل أتكا ، ثم انحرف نحو الشرق وحول لسان سنيوم ذى الهيكل ، وصل إلى جزيرة كيوس Ceos الصغيرة حيث « كان في يوم من الأيام قانون يحتم على من بلغوا الستين من عمرهم أن يشربوا عصير الشيكران السام حتى يكتفى الطعام من يتبقى حياً من الناس^(٤) » إذا قبلنا ما لا يقبله العقل اعتماداً على قول استرابون وأفلوטרخس .

وربما كان هذا هو الذى جعل شاعرها العظيم ينقى نفسه مختاراً من كيوس بعد أن جاوز سن الكهولة ؛ ولعله قد وجد أن من العسير عليه أن يبلغ في موطنه الأصل السابعة والثمانين من العمر التى تقول الرواية اليونانية المتواترة إنه قد بلغها . وقد كان جميع العالم اليونانى يعرف سمنيدس وهو فى سن الثلاثين ، ولما مات فى عام ٤٦٩ أجمع الناس كلهم على أنه أنبه كتاب زمانه ذكراً . كانت شهرته فى الشعر والغناء هى التى جعلت هباركس Hipparchus ، وهو ثانى اثنين من الحاكين بأمرهما معاً فى أثينة ، يدعوه إليها ، وقد استطاع فى بلاطها أن يعقد أواصر الصداقة مع شاعر آخر . وبقي حياً بعد الحروب الفارسية واختير عدة مرار ليكتب قهريات الأنصاب التى تقام على قبور المكرمين من الأموات . وعاش فى شيفوخته فى بلاط هيرون Hieron الأول طاغية سرقوسة ، وبلغ من الشهرة وقتئذ حدّاً أمكنه به أن يعقد الصلح فى ميدان القتال عام ٤٧٥ بين هيرون وثيرون Theron طاغية أكرجاس ، وكان القتال قد أوشك أن ينشب بينهما^(٥) . ويحدثنا أفلوטרخس فى مقاله الشديد الصلة بهذا الموضوع نفسه وعنوانه « هل يجب أن يحكم الناس الشيوخ » أن سمنيدس ظل يكسب جائزة

الشعر الغنائى والغناء الجماعى حتى بلغ سن الشيخوخة . ولما رضى آخر الأمر أن يموت دفن في أكرجاس بمظاهر التكريم الخليفة بالملوك .

ولم يكن سميندس شاعراً فحسب ، بل كان فوق ذلك رجلاً ذا شخصية عجيبة ، وكان اليونان ينددون به ويحبونه لرذائله وشذوذه . وكان مغرمًا بالمال فإذا غاب عنه الذهب لم يلهم الشعر ؛ وكان أول من كتب الشعر ليؤجر عليه ، وحجته في هذا أن من حق الشاعر أن يأكل كما يأكل سائر الناس ؛ ولكن هذه العادة كانت جديدة في بلاد اليونان ، وكان أرسطينز يردد غضب الشعب منها ، ويقول إن سميندس « لا يستنكف أن يذهب إلى البحر في محفة ليكسب فيه فلساً^(١) » . وكان يفخر بأنه اخترع طريقة لمساعدة الذاكرة على الاستظهار أخذها عنه شيشرون واعترف بفضلها عليه^(٢) . والمبدأ الجوهرى الذى تقوم عليه هذه الطريقة هو ترتيب الأشياء التى يريد أن يتذكرها متتابعة في ترتيب منطقي من نوع ما بحيث يودى كل قسم منها بطبيعته إلى القسم الذى يليه . وكان رجلاً فكها ، انتشرت أجوبته الفكهة المسكتة في جميع مدن اليونان وتداولها الناس فيما بينهم تداول النقود ، ولكنه قال في شيخوخته إنه كثيراً ما ندم على الكلام وإن لم يندم قط على السكوت^(٣) .

وإننا ليدهشنا أن نجد في القليل الباقى لدينا من أقوال هذا الشاعر الذى نال كثيراً من الثناء والعطاء تلك الكتابة التى كانت طابع الكثير من أدب اليونان بعد هومر - ونقول بعد هومر لأن الناس في أيامه كانوا أنشط من أن يكتبوا ، وكانوا أعنف من أن يتضايقوا ويملوا :

« ألا ما أقل أيام الحياة وما أكثر ما فيها من شرور ، ولكن نومنا نحت أطباق الثرى سيكون نوماً سرمدياً ... وما أضعف الإنسان وما أقوى أغلاطه ؛ إن الأحزان تأتي في أعقاب الأحزان طوال حياته القصيره ثم يدركه آخر الأمر الموت الذى لا ينجو منه إنسان ، والذى يرد حوضه الأختيار والأشرار على

السواء ... ما من أحد من الناس وما من شيء من صنعهم خالد ؛ وما أصدق قول شاعر طشبيوز Chios ، إن حياة الإنسان كحياة ورقة الشجر الخضراء . لكن الذين يسمعون هذا لا يكاد يذكر منهم أحد ، لأن الأمل قوى في صدور الشبان ؛ فإذا كان الإنسان في نضرة الشباب ، وكان فارغ القلب من المتاعب ، امتلأ عقله بالأفكار الباطلة وظن أنه لن تدركه الشيخوخة ، ولا الموت ؛ وهو لا يفكر في المرض إذا كان صحيح الجسم.. ألا ما أشد حمن من يفكرون هذا التفكير ومن لا يعرفون أن أيام شبابنا وأيام حياتنا قصيرة^(٩) . ولم يكن يجيش في صدر سمنيدس أمل في جزيرة مباركة تخفف عنه آلامه ؛ كما أن أرباب أولبس قد أصبحت كأرباب المسيحية في بعض الشعر الحديث أدوات لقرض الشعر لا وسائل لتخفيف أحزان النفوس . ولما تحدها هيرون وطلب إليه أن يحدد طبيعة الله وصفاته ، استمهله يوماً واحداً يعد فيه جوابه ، وفي اليوم الثاني استمهله يومين آخرين ، وكان في كل مرة يضاعف لمهلة التي يطلبها ليعد فيها الجواب . ولما طلب إليه هيرون أن يوضح له معنى مسلكه هذا ، أجابه أن هذا الأمر يزداد غموضاً كلما طال تفكيره فيه^(١٠) .

ولم تنجب كيوس سمنيدس وحده بل أنجبت أيضاً بكليدس Bacchylides ابن أخيه وخليفته في الشعر الغنائي ، وأنجبت في أيام الإسكندر الأكبر لإراستراتس Erasistratus العالم الكبير في تشريح الأجسام . وليس في مقدورنا أن نقول هذا القول نفسه عن جزائر سريفسوس Siriphos ، أو أندروس Andros أو تينوس Tenos أو ميكونوس Myconos أو سيكنوس Sicinos أو إيبوس Ios . وفي سيروس Syros عاش فرسيديز Pherecydes (حوالي ٥٥٠) ، وقد اشتهر بأنه علم فيثاغورس ، وبأنه أول من كتب من الفلاسفة نثراً . أما ديلوس فكانت مسقط رأس أبلو نفسه ، على حد قول القصة اليونانية . ولقد بلغ من تقديس الناس لهذه الجزيرة ، لأن فيها مزاره ، أن حرموا الموت والولادة داخل

حلودها . فكانت كل امرأة مقبلة على الوضع تنقل منها ، وكان كل إنسان دنت منيته يبعد عنها ، إلى غيرها من البلاد ، وأخرجت أجسام من كان فيها قبل مولد أبلو من قبورها المعروفة حتى تصبح الجزيرة طاهرة نقية^(١١) . وفي هذه الجزيرة احتفظت أثينة هي وحليفاتها من المدن الأيونية بكنوز حلف ديلوس بعد هزيمة الفرس ؛ وفيها كان الأيونيون يجتمعون كل أربع سنين اجتماعاً يخلط فيه النبي بالمرح للاحتفال بعيد الإله الجميل . وتصف إحدى ترانيم القرن السابع قبل الميلاد « النساء ذوات المناطق الجميلة^(١٢) » ، والتجار الحريصين الدائنين على العمل في حرايتهم ؛ والجواهر المصطفة على جوانب الطرق ترقب الموكب المقدس ، وما يقام في المعبد من شعائر وطقوس مهيبة ، وما يقرب فيه من قربان مقدس ؛ وتصف كذلك الرقص المرحة والترانيم الجماعية التي تنشدها عذارى من ديلوس وأثينة اختاروهن لجمالهن وحسن أصواتهن ؛ والمباريات الرياضية والموسيقية ، والمسرحيات التي كانت تمثل في الملاهي في الهواء الطلق . وكان الأثينيون يرسلون في كل عام بعثة إلى ديلوس تحفل فيها بمولد أبلو ، فإذا سافرت إليها لا يعدم مجرم في أثينة حتى تعود . وهذا هو سبب الفترة الطويلة التي انقضت بين الحكم على سقراط وبين إعدامه والتي أفاد منها الأدب والفلسفة أعظم فائدة .

ونكسوس Naxos أكبر جوائز السكلديس كما أن ديلوس تكاد تكون أصغرهما . واشتهرت في الزمن القديم بخمرها وورخامها ، وأثرت في القرن السادس ثراء أمكنها أن تبني لها أسطولا خاصاً بها، وأن تكون لها مدرسة خاصة للنحت . وإلى الجنوب الشرقي من نكسوس جزيرة أمرجوس Amorgos موطن سمنيدس Semonides البغيض الذي هجا النساء

هجاء لاذعاً حرص التاريخ الذى كتبه الرجال على الاحتفاظ به إلى هذه الأيام(*) . وإلى الغرب منها تقع جزيرة پاروس وتكاد كلها أن تكون من الرخام ، وأهلها يشيدون منه بيوتهم ، وقد وجد فيها پرکستيلز الحجر النصف الشفاف الذى نحته وصقله وصور فيه الجسم الأدمى صورة يكاد يعتقد الناظر إليها أنها من لحم ودم . وفى هذه الجزيرة ولد فى أواخر القرن الثامن أركلوكوس Archilochus من جارية مشتاة بالمال ولكنه كان أعظم الشعراء المغنين فى بلاد اليونان . وقد قاده حظ الجنود شمالاً إلى ثاسيوس Thasos حيث اشتبك فى حرب مع أهلها ، ولكنه فى أثناء المعركة أتى بدرعه وأطلق ساقيه لاربع لأنه وجدها أعود عليه بالفائدة من اللروع ، وعاش ليسخر من هذا الحرب فيما بعد سخريات مرحة كثيرة . ولما عاد إلى پاروس أحب فيها نيوبولى Neobule ابنة الثرى ليكبيز Lycambes . وهو يصفها بأنها فتاة متواضعة ، لها ضفيرتان تتوسان على كتفها ، ويتحسر كما يتحسر أمثاله فى كل الأزمان ويقول إن « كل ما يتمناه أن يلمس يدها(١٤) » . ولكن ليكبيز كان يعجب بشعر الشاعر أكثر من إعجابه بماله ، ففضى على آماله ، فما كان من أركلوكوس إلا أن حمل عليه وعلى نيوبولى وأختها حملة من الهجاء شعواء آثر معها ثلاثتهم كما تقول القصة أن يشنقوا أنفسهم . وامتلاً قلب أركلوكوس حقداً على پاروس فرك « تينها وسمكها » وأصبح مرة أخرى جندياً يبحث عن حظه فى ميادين القتال . ولما أن عجزت ساقاه فى آخر الأمر عن أن تسعفاه فى الحرب قتل وهو يحارب النكسين(١٥) .

وتدلنا قصائده على أنه كان يغلظ فى القول لأعدائه وأصدقائه على السواء ، وأنه كان شديد الولوج بالزنا يدفعه إلى هذا خيبة آماله فى الحب(١٥)

(*) يشبه سينيوس النساء فى أيامه بالتمالب والحدير والخنازير ، والبحر المنقلب ، وهتم أن زوجاً من الأزواج لا يمر عليه يوم واحد فى حياته دون أن توجه إليه زوجته كلمة تأنيب

(**) أهل جزيرة نكسوس Naxos .

والصورة التي ترسم له في تخيلتنا هي صورة القرصان الملهم والبحار الرخيم الصوت ، ذى اللفظ الحسن في نثره المصقول في شعره ، يعمد إلى البحر العميق (*) من بحور الشعر ، وهو الذى كانت تصاغ فيه الأغاني الشعبية وقتئذ ، فيؤلف به أبياتاً قصيرة لاذعة من ثلاثة أوتاد . وهذا البحر العميق ذو الثلاثة الأوتاد هو الذى كتبت به المأسى اليونانية الشهيرة . لكنه لم يقتصر على هذا الوزن بل أخذ يجرب بحوراً أخرى كالبحر الدقتيلى (٥٩) السداسى الأوتاد والتروقى (+) الرباعى الأوتاد ، وبحوراً أخرى تجاوز العشرة عدداً (++) . وهو الذى أدخل في الشعر اليونانى الأوزان التى احتفظ بها إلى آخر الأيام . ولم يبق من قصائده إلا بضعة أسطر قليلة غير كاملة ، ولسنا نجد بدأ من قبول قول الأقدمين إنه كان أحب الشعراء اليونان إلى بلده وطنه بعد هومر . وكان هوراس يجب أن يقلد أوزانه المتغيرة ، ولما سئل أرسطينز البيزنطى الناقد المتأغرق العظيم أى قصائد أركلوكوس أحبها إليه ، أجاب عن ذلك السؤال بكلمتين اثنتين عبر بهما عن شعور بلاد اليونان كلها فقال : « أطول القصائد (١٦) » .

وعلى مسيرة باكبورة اليوم بالسفينة من پاروس تقع جزيرة سفنوس Siphnos الشهيرة بمناجم الفضة والذهب . وكان الشعب يمتلك هذه المناجم عن طريق حكومته . وكان نتاجها عظيماً استطاعت الجزيرة به أن تعتمد

(*) البحر العميق Iambic هو المؤلف من فاصلة قصيرة تليها فاصلة طويلة ؛ أو من مقطع لا نبرة صوتية عليه يليه مقطع ذو نبرة صوتية . (المترجم)

(**) البحر الدقتيل هو الذى يتألف كل وتد من أوتاده من ثلاثة مقاطع أولها قصير ويليه مقطعان طويلان . (المترجم)

(+) والتروقى يتألف كل وتد من أوتاده من مقطعين أولها طويل والآخر قصير . (المترجم)

(++) إذا شاء القارئ أمثلة لهذه البحور فإنه يجدها في قصيدتي

Evangeline و Hiawtha لئيج فلر Lengfellow ، وفي مقطوعة Blwo blow, thou winter wind لشيكسبير ؛ فالأول من البحر الدقتيل السداسى الأوتاد والثانية من التروقى الرباعى الأوتاد والثالثة من العميق الثلاثى الأوتاد .

عليه في إقامة الخزانة السَّفنية في دلفي ، وما فيها من تماثيل النسوة اللاتي يحملن على رؤوسهن مواد البناء وهن هادئات مطمئنات ، وأن تقيم آثاراً غيرها كثيرة ، وأن توزع مع ذلك مقداراً كبيراً من المعدنين النفيسين على الأهلين في آخر كل عام (١٧). وفي عام ٥٢٤ جاء جماعة من اللصوص من ساموس ونزلوا في هذه الجزيرة وفرضوا عليها جزية تبلغ مائة وزنة - أى ما يساوى ٦٠٠.٠٠٠ ريال أمريكي من نقود هذه الأيام . وقبلت بلاد اليونان الأخرى هذه السرقة الجريئة بالاطمئنان والجلد اللذين يقبل بهما الناس في العادة مصائب أصدقائهم .

الفصل الثالث

الفيض الدوري

واستعمر الدوريون أيضاً جزائر سكلديس وروضوا طباعهم العسكرية بتدريج جوانب الجبال وتسويتها على مهل حتى تمسك الأمطار الشحيحة فتروى نباتهم وكرمهم . وفي ميلوس ورثوا عن أسلافهم من أهل العصر البرنزي استخراج الحجر الزجاجي الطبيعي ، وبفضلهم أثرت الجزيرة ثراء جعل الأثينيين يبذلون قصارى جهدهم لكسب معونتها في كفاحهم مع إسبارطة . وسرى هذا في الفصول التالية من هذا الكتاب . وفي هذه الجزيرة عثر المتقبون على « أفرديتي ميلوس (*) » وهو الآن أشهر تماثيل في العالم الغربي كله .

واتجه الدوريون شرقاً ثم جنوباً وفتحوا ثيرا Thera وكريت ؛ ومن ثيرا أرسلوا بجالية منهم استعمرت سيريني . واستقر عدد قليل منهم في قبرص ، وكان فيها منذ القرن الحادى عشر جالية قليلة العدد من اليونان الأركاديين تنازع الأسر الفينيقية القديمة السيادة على الجزيرة . وكان من هؤلاء الملوك الصغار يميليون الذى تروى عنه القصص أنه أعجب بتمثال من العاج لأفرديتي نحتة هو بنفسه فشغفه حباً ورجا الآلهة أن تهب الحياة ، فلما أجاب رجاءه تزوج الفتاة التى صنعها بيده^(١٨) . والراجع أن كشف الحديد قد قلل طلب الناس لنحاس قبرص فتخلفت الجزيرة عن ركب التقدم الاقتصادى اليونانى . وكان من أثر تقطيع الأهلين الأشجار ليصهروا بها فلذ النحاس ، وتقطيع الفينيقيين لإياها لصنع سفنهم ، وتقطيع اليونان الكثير منها لإعداد الأرض للزراعة ، كان من أثر هذا التقطيع أن استحالت الجزيرة

(٥) أوثونس (زهرة) مهلوكا يعرفها الفرييون باسمها المشتق من اسم الإلهة الرومانى واسم الجزيرة الإيطالى .

شيئاً فشيئاً إلى تلك الأرض المهجورة نصف المجذبة كما نراها اليوم . وكان فن الجزيرة ، كما كان أهلها ، في العصر اليوناني خليطاً من آثار الفن المصري والفينيقي واليوناني ، ولم يكن له في يوم من الأيام طابع واحد خاص به (*) . ولم يكن الدورون إلا أقلية من سكان قبرص اليونان ؛ أما في رودس ، وجزائر اسبرديس Sporades الجنوبية وما جاورها من أرض القارة الأوربية فقد أصبحوا هم الطبقة الحاكمة . وازدهرت رودس وعمها الرخاء في القرون التي بين هومر ومرثون ، وإن لم يبلغ هذا الازدهار ذروته إلا في العصر الذي اصطبغت فيه تلك البلاد بالصبغة اليونانية . وأنشأ المستعمرون الدورون على لسان في البحر بارز من قارة آسية مدينة نيدوس Cnidus ؛ وبفضل موقعها هذا أصبحت ثغراً صالحاً للتجارة الساحلية . وفي هذه المدينة ولد في مستقبل الأيام يودكسس Eudoxus الفلكي وتسياس Ctesias المؤرخ (أو كاتب الخرافات) وستراتس Sostratus الذي بنى في مستقبل الأيام منارة الإسكندرية . وهنا أيضاً وجد بين أنقاض المعابد القديمة تمثال دمر الأم الخزينة المحفوظ في المتحف البريطاني .

وتقع أمام نيدوس جزيرة كوس موطن أبقراط ، وقد كانت مركزاً لعلم الطب اليوناني ينافس فيه نيدوس . وفيها ولد أبلير Apelles الرسام وثيريكتيوس Theocritus الشاعر . وكان على بعد قليل منها وعلى الساحل نفسه مدينة هليكارنسس Halicarnassus مسقط رأس هيرودوت . وقد كانت في أيام انتشار الحضارة اليونانية مقر حكم موسولوس Mausolus الملك الكاري وحبيته أرتميزيا . وقد تكون من هذه المدينة ومن كوس ونيدوس ومن مدائن رودس الشهيرة (لندس ، وكبرس ، وبليس) المدائن الست الدورية في آسية الصغرى وهي التي قامت تنافس إلى جين مدائن أيونيا الاثنتي عشرة منافسة ضعيفة .

(*) انظر الصندوق رقم ١٢ من مجموعة الماديات القبرصية لسنولا Cassola في المتحف الفنّي بنويورك . وقد كشف علماء الآثار الإنجليزي في عام ١٨٦٨ لوحة عليها كتابة يونانية استطاعوا بفضلها أن يخلصوا رموز الكتابة القبرصية ، وتبين لهم ولعلم أنها لهجة من اللهجات اليونانية تكتب برموز مقطوعة . ولكن نتيجة هذا الكشف لم تصف شيئاً ذا قيمة لتاريخ العالم .

الفصل الرابع

الاثنتا عشرة مدينة الأيونية

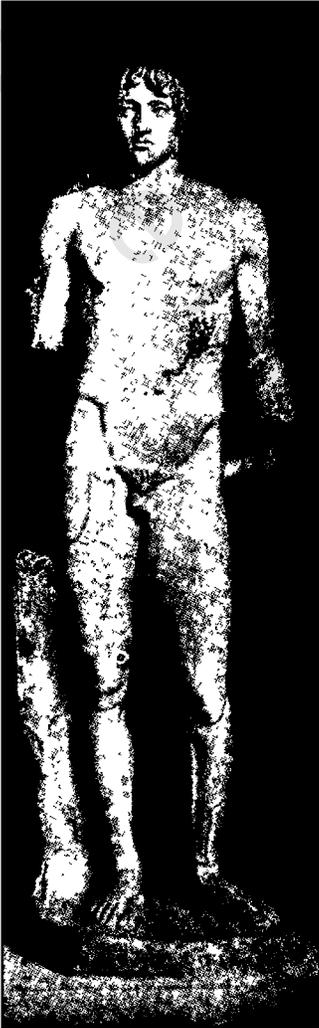
١ - ميليتس والمواطن الأول للفلسفة اليونانية

كان يمتد إلى الشمال الغربي من كاريا مسافة تسعين ميلا شريط ساحلي جبلي يختلف عرضه بين عشرين وثلاثين ميلا ، وهو المعروف في الزمن القديم باسم أيونيا . وبصفه هيرودوت بقوله « إن هواءه ومناخه أجل هواء ومناخ في العالم كله »^(١٩) . وكانت كثرة مدائنه عند مصاب الأنهار أو عند منتهى الطرق ، وكانت هذه الأنهار والطرق تنقل البضائع مما وراءها من الإقليم إلى شاطئ البحر المتوسط . منه تنقل على ظهور السفن إلى كافة الأنحاء .

وكانت ميليتس ، وهي أبعد المدن الاثنتي عشرة الأيونية جهة الجنوب ، أغنى مدائن العالم اليوناني كله في القرن السادس قبل الميلاد . وقد قامت هذه المدينة في موضع كان يسكنه الكاريون من العهد المينوي ، فلما أقبل الأيونيون من أتكا على هذا المكان حوالي ١٠٠٠ ق . م ، وجلوا فيه الثقافة الإيجية وإن كانت في صورة مضمحلة ، تنتظرهم ليتخلوها بداية متقدمة لحضارتهم . ولم يأتوا معهم بنساء إلى ميليتس فاكتفوا بأن قتلوا الذكران من أهلها وتزوجوا الأرامل^(٢٠) . وبدأ امتزاج الثقافتين بامتزاج دماء الأهلين والوافدين . وخضعت ميليتس ، كما خضعت كثرة المدن الأيونية ، في أول الأمر لحكم الملوك الذين يقودون جيوشها في الحرب ، ثم خصعت بعدئذ لحكم الأشراف الذين يملكون الأرض ، ثم لحكم « المستبدين » الذين يمثلون الطبقة الوسطى . ووصلت الصناعة والتجارة إلى فروتيتها في عهد الطاغية ثراسيبولوس Thrasybulus في بداية القرن

السادس قبل الميلاد ، وأثمر رخاوتها المطرد أدباً وفلسفةً وفناً . وكان الصوف يحمل إليها من أرض الكلا الغنية في الداخل وينسج ملابس في مصانع النسيج القائمة في المدينة . وتعلم التجار الأيونيون عن الفينيقيين إقامة المستعمرات لتكون مراكز تجارية ، فأنشأوا العدد الكبير منها في مصر وإيطاليا وعلى شواطئ بحر البروبنتس واليوكسين ، ثم تفوقوا شيئاً فشيئاً على معلمهم في هذا المجال فكان ميليتس وحدها ثمانون مستعمرة من هذه المستعمرات التجارية ، ستون منها في الشمال . وكانت ميليتس تستورد من أيدوس ، وسيزيكوس Cyzicus ، وسينوب ، وألبيا Olbia ، وتراپيزوس Trapezus ، وديوسكورياس Dioscurias ، الكتان ، والخشب ، والفاكهة ، والمعادن ، وتصدر إليها بدلا منها مصنوعاتا اليدوية . وأصبح ثراء المدينة وترفها تضرب بهما الأمثال وتعتبر بهما المدينة في بلاد اليونان بأجمعها . وفاضت خزائن تجارها بالأموال فأخذوا يمولون المشروعات في طول البلاد وعرضها وفي المدينة نفسها ، فكانوا هم آل ميديتشي في عصر النهضة الأيونية .

وفي هذه البيئة المنعشة الباعثة على النشاط الذهني أثمرت بلاد اليونان الثمرتين الأوليين من الثمار التي امتازت بها على غيرها ، وأهدتهما إلى العالم كله - نقصد العلوم الطبيعية والفلسفة ؛ ذلك أنه حيث تتلاقى الطرق تتلاقى الآراء والعادات والعقائد المتباينة ؛ وينشأ من اختلافها احتكاك ، فتنازع ، ففاضلة ، فتفكير ؛ فتمحو الخرافات بعضها بعضاً ، ويبدأ التفكير المنطقي السليم . وقد تلاقى في ميليتس كما تلاقى في أثينة رجال جاءوا من مائة دولة متفرقة ، ذوو نشاط عقلي بعثه فيهم التنافس التجاري ، وقد تبحروا من أسر التقاليد لطول غيابهم عن أوطانهم ، وهياكلهم ، ومذابح آلهتهم . وكان أهل ميليتس أنفسهم يسافرون إلى المدن البعيدة حيث تفتحت عيونهم على حضارة ليديا ، وبابل ، وفينيقية ، ومصر . وبهذه الطريقة وغيرها من الطرق دخل علم الهندسة المصرية



(شكل ١٤) أبولو
(عن متحف الأكرودبول بأثينة)



(شكل ١٣) عطراء
منقوأة عن (متحف الأكرودبول بأثينة)

وعلم الفلك البابلي العقل اليونانى ، ونمت التجارة الداخلية . والعلوم الرياضية ، والتجارة الخارجية ، وعلوم الجغرافية ، والملاحة ، والفلك ، كلها فى وقت واحد . وكان الثراء فى هذه الأثناء قد أوجد للناس الفراغ ، ونشأت فى البلدة أرستقراطية ثقافية امتازت بالتسامح الفكرى لأن من يستطيعون القراءة كانوا أقلية صغيرة فى المدينة . ولم يكن يُضَيَّق على عقول الناس وتفكيرهم قيود يفرضها رجال دين أقوياء ، ولا نصوص قديمة منزلة موحى بها ، وحتى القصائد الهومرية التى أمست فيها بعد كتاب اليونان المقدس إلى حد ما لم تكن قد اتخذت بعد شكلها النهائى المحدد المعروف ، ولما اتخذته كان ما فيها من أساطير دينية مطبوعاً بطابع التشكك الأيونى والمرح الجوفى . ومن ثم أصبح التفكير فى هذه المدينة لأول مرة تفكيراً دنيوياً غير دينى يسمى وراء الأجوبة العقلية المنسقة غير المتنافرة لما يجر العقول من مسائل العالم والناس (٥) .

على أن الفرس الجديد ، وإن كان قد حل محل الفرس القديم ، كانت له أصوله وكان له آباؤه وأجداده ، فقد امتزجت بالفلسفة الواقعية الطيبة التى كانت من خصائص التجار الفيزيقيين واليونان حكمة الكهنة المصريين والمجوس الفرس الأقدمين ، بل لعلها قد امتزج بها أيضاً حكمة المتنبيين الهنود وعلم الكهنة الكلدان وبداية الخليفة المحسدة التى صاغها هزيبود شعراً . وقد مهد الدين نفسه السبيل إلى هذا المزج حين تحدث عن موربا mori a أو القدر ، وقال إنه هو المتحكم فى الآلهة والبشر . وكان هذا بداية فكرة القانون الذى يعلو على الإرادة الشخصية مهما عظمت ، وهى الفكرة التى تدل على الفرق الجوهرى بين العلم والأساطير ؛ وبين الاستبداد والديمقراطية . ولقد تحرر الإنسان من يوم أن اعترف أنه خاضع لحكم القانون ، وأكبر الأسباب التى جعلت اليونان ذوى خطر فى

(٥) وقد ظهرت حركات شبيهة بهذه الحركة فى الهند والصين فى هذا القرن السادس قبل الميلاد .

التاريخ ورفعهم فيه إلى أعلى مكانة ، هي أنهم ، على قدر ما وصل إليه علمنا ، كانوا أول من اعترف بخضوع الإنسان لحكم القانون وبحقه في البحث الفلسفي وفي اختيار الحكم الذي يرتضيه .

وإذ كانت الحياة تتطور متأثرة بعاملين هما الوراثة والتجديد ، أي بتثبيت العادات وإقرارها وبالتجديد التجريبي ، فقد كان من المنتظر أن تكون الأصول الدينية للفلسفة هي التي تغذيها ، وأن يبقى فيها إلى آخر أيامها عنصر ديني قوي . وقد كان في الفلسفة اليونانية تياران يجريان جنباً إلى جنب : أحدهما تيار طبيعي الزعة ظاهر والثاني تيار صوفي غامض . وقد نشأ الثاني من عهد فيثاغورس ، وشمل برمنديس وهرقليطس ، وأفلاطون وكلثيس Cleanthes وانتهى ببلنتينوس Blontinus والقديس بولس ؛ وأما الثاني فقد كان أول رجاله العالمين طاليس وشمل أنكسمندر ، وكزنوفانيس Xenophanes ، وپرونجراس ، وهقراطس ، ودمقريطس ، وانتهى بأبيقور ولكرتيتوس Lucretius . وكان يحدث من حين إلى حين أن يقوم رجل عظيم - كسقراط وأرسطاطاليس ، وماركس أورليوس - فيمزج التيارين في مجرى واحد يحاول به أن يوضح نظم الحياة المعقدة التي لا تنطبق على قانون . على أن النعمة الغالبة في هؤلاء الرجال أنفسهم كانت هي حب اتباع العقل ، وهي النعمة التي يمتاز بها التفكير اليوناني .

ولد طاليس حوالي ٦٤٠ ق . م وأكبر الظن أنه ولد في ميلينس وكان الدائر على ألسنة الناس أنه من أبوين فينيقيين^(٢١) ، وتلقى معظم تعليمه في مصر والشرق الأدنى . وفيه يتمثل انتقال الثقافة من الشرق إلى الغرب . ويبدو أنه لم يشتغل بالأعمال التجارية والمالية إلا بالقدر الذي أمكنه أن يحصل به على طيبات الحياة العادية . وليس من يجهل قصة مضارباته في معاصر الزيت^(٢٢) . ثم صرف باقي

(٢١) وهاهي ذي القصة حل لسان أرسطو نفسه ؛ يقولون إن طاليس أدرك بمهارته في علم النجوم (النلك) أن محصول الزيتون سيكون موفوراً في ذلك العام فاستأجر في الشتاء =

وقته في الدرس وانهمك فيه انهما كما توحى به قصة سقوطه في حفرة وهو يرقب النجوم . وكان رغم عزله يهتم بشئون المدينة ، يعرف الطاغية ثراسيبولوس معرفة وثيقة ، ويدعو إلى تكوين حلف من الدول الأيونية للدفاع عن نفسها ضد ليديا وفارس (٢٣)

وتعزو إليه الروايات المتواترة كلها إدخال العلوم الرياضية والفلكية إلى بلاد اليونان . وتروى إحدى القصص القديمة أنه وهو في مصر قدر ارتفاع الأهرام بقياس ظلها في الساعة التي يكون فيها ظل الإنسان مساوياً لطول قامته . ولما عاد إلى أبونيا واصل دراسة الهندسة النظرية التي خلبت له بمنطقها السليم ، وما فيها من استدلال علمي ، وشرح كثير من النظريات التي جمعها إقليدس فيها بعد (*) . وكما أن هذه النظريات كانت الأساس الذي قام عليه علم الهندسة النظرية اليونانية ، كذلك كانت دراسته لعلم الفلك الأساس الذي قام عليه هذا العلم في الحضارة الغربية ، بعد أن خلاصه من التنجيم الذي أدخله فيه الشرقيون . وكانت له بعض الأرصاد الصغرى ، وقد دهشت بلاد أبونيا بأجمعها حين أفلح في التنبؤ بخسوف الشمس في الثامن والعشرين من شهر مايو عام ٥٨٥ ق . م ٢٥ ، والراجع أنه قد بنى هذا التنبؤ على أساس السجلات المصرية وعلى حساب البابليين . أما فيما عدا هذا فإن نظريته في نظام الكون لا ترقى كثيراً على ما كان

قبل أن يبين موعد جنبه جميع معاصر الزيت في ميليتس وطيبيوز بإيجاز منخفض لأنه لم يجد وقتئذ أحداً ينافسه . ولما حل موعد عصر الزيت وتقدم الكثيرون من الناس يطلبون هذه المعاصر أجراها لهم بالشروط التي يرتضيها ، وجمع هذه الطريقة أموالاً طائلة وأثبت لهم أن من يسير على الفلاسفة أن يفتنوا إذا شأوا .

(*) وهى : أن قطر الدائرة يقسمها قسمين متساويين ، وأن الزاويتين المجاورتين لقاعدة المثلث المتساوى الساقين متشابهتان (يقصد متساويتين) ، وأن الزاوية المقابلة لربع الدائرة زاوية قائمة ؛ وأن الزاويتين المتقابلتين بالرأس الناشئتين من تقاطع خطين مستقيمين متساويتين ؛ وأن المثلثين يتساويان إذا تساوت في أحدهما زاويتان ووضلع بنظائرها في المثلث الثاني (٢٤) .

شائعاً عن هذا النظام عند المصريين واليهود ، فقد ظن أن العالم يتكون من نصف كرة يتركز على منبسط من الماء لا نهاية له ، وأن الأرض قرص مستو طاف على السطح المستوي في داخل هذا الجسم النصف الكروي . ويذكرنا هذا بقول جيته Goethe إن الإنسان يشترك في رذائله (أو أخطائه) مع أهل زمانه ، أما فضائله (أو فراسته) فإنه ينفرد بها دون سائر الناس .

وكما أن بعض الأساطير اليونانية قد جعلت أقيانوس Oceanus والد الخلاق بأجمعها ، فكذلك جعل طاليس الماء المبدأ الأول لجميع الأشياء ، وشكلها الأصلي ومصيرها النهائي . ويقول أرسطو إنه ربما جاء بهذا الرأي بعد أن شاهد « أن غذاء كل شيء رطب وأن ... بدور كل شيء ذات طبيعة رطبة ؛ .. وأن ما يتولد منه كل شيء هو دائماً مبدؤها الأساسي » (٣٧) . أو لعله كان يعتقد أن الماء هو الصورة الأولى أو الأساسية من صور المادة الثلاث - الغازية والسائلة والصلبة - التي يمكن أن تتحول إليها المواد كلها من الوجهة النظرية ؛ وليس أهم ما في آرائه قوله إن الماء أصل كل شيء ، بل أهمها إرجاعه الأشياء جميعها إلى أصل واحد ؛ ولقد كان ذلك أول قول يوحده المادة في التاريخ المدون كله . ويصف أرسطو آراء طاليس بأنها آراء مادية ؛ ولكن طاليس يضيف إلى أقواله السابقة أن كل جزء في العالم حي ، وأن المادة والحياة وحدة لا ينفصل أحد جزأها عن الآخر ، وأن في النباتات والمعادن « نفساً » خالدة كما في الحيوان والإنسان ، وأن القوة الحبوية تتغير صورتها ولكنها لا تموت أبداً (٣٨) . وكان من عادة طاليس أن يقول إنه لا يوجد فرق جوهري بين الأحياء والأموات . ولما أراد بعض الناس أن يضايقه بسؤال إياه لم إذن يؤثر الحياة على الموت أجابه بقوله : « ذلك لأنه لا فرق بينهما » (٣٩) .

ولما بلغ سن الشيخوخة أجمع مواطنوه على تلقيبه بلقب الحكيم Sophos ، ولما اعتزمت بلاد اليونان أن تتخذ أسماء حكامها السبعة ، وضعت اسم طاليس

على رأسهم . وسئل طاليس عن أصعب الأشياء ، فأجاب بقوله الحكيم الذى جرى مجرى الأمثال : « أن تعرف نفسك » . ولما سئل عن أسهل الأشياء قال : « أن تسدى النصح » وسئل ما هو الله ؟ فأجاب « هو ما ليس له بداية ولا نهاية » . وسئل كيف يستطيع الناس أن يعيشوا عيشة الفضيلة والعدالة فأجاب : « ألا نفعل نحن ما نلوم غيرنا على فعله (٣٠) » . ويقول ديوجينيز ليرتيوس Diogenes Laertius (٣١) : إنه مات « وهو يشاهد مباراة فى الألعاب الرياضية . بعد أن أضناه الحر والظما والتعب لأنه بلغ سن الشيخوخة » .

ويقول استرابون (٣٢) . إن طاليس كان من كتب فى الفيزيولوجيا أى علم الطبيعة (physics) أو مبدأ وجود الأشياء وتطورها . وقد تقدم علمه تقدماً عظيماً على يد تلميذه أنكسندر ؛ وقد عاش بين عامى ٦١١ ، ٥٤٩ ق . م ولكنه نشر على الناس فلسفة تشبه شهاً عجيباً الفلسفة التى نشرها هربرت اسبنسر Herbert Spencer فى عام ١٨٦٠ م وهو يهتز طرباً من قوة ابتكاره الفطين . ويقول أنكسندر إن المبدأ الأول كان لا نهائية غير محددة واسعة الأرجاء (Apeiron) ، أى كتلة غير محددة ليست لها صفات خاصة ، ولكنها تنمو وتتطور بما فيها من قوى ذاتية ، حتى نشأت منها جميع حقائق الكون المختلفة (*) . وهذه اللانهائية الحية السرمدية التى لا صلة لها بالشخصية ولا بالأخلاق هى الإله الذى لا إله غيره فى نظام أنكسندر ؛ هى الواحد السرمدى الذى لا يحول ، والذى يختلف كل الاختلاف عن الكثرة الفانية المتغيرة التى فى عالم الأشياء . وهنا تلتقى هذه الفلسفة بآراء المدرسة الإلينية Eleatic فى وراء الطبيعة - وهى أن الواحد السرمدى دون غيره هو الحقيقة . ومن هذه اللانهائية التى لا خواص لها تولد العوالم الجليدة فى تتابع لا ينقطع أبداً ، وإلها تعود هذه العوالم فى تتابع

(*) قارن هذا بما عرف به اسبنسر التطور إذ قال إنه قبل كل شئ، تحول من التجانس غير المترابط غير المحدد ؛ إلى التباين المترابط المحدد (٣٣) .

لا ينقطع أبداً ، بعد أن تتطور وتموت . وتحتوى الانهائية الأزلية على جميع الأضداد - الحر والبرد ، والرطوبة والجفاف ، والسيولة والصلابة والغازية . . . ، وهذه الصفات الإمكانية تصبح في حالة التطور حقائق واقعية ، وتنشأ منها أشياء محددة مختلفة ؛ وفي حالة الانحلال تعود الصفات المتضادة مرة ثانية إلى اللانهائية (ومن هذه الآراء استمد هرقليطس واسبينسر آراءهما) . وفي قيام العوالم وسقوطها على هذا النحو تصطرع العناصر المختلفة بعضها مع بعض ، ويعتدى بعضها على بعضها اصطراع الأضداد المتعادية ، ويكون جزاؤها على هذا التضاد هو الانحلال ؛ « فتفنى الأشياء في الأشياء التي ولدت منها » .

ولا يسلم أنكسمندر هو الآخر من الأوهام الفلكية التي يمكن أن تغتفر في عصر لا توجد فيه آلات ، ولكنه تفوق على طاليس بقوله إن الأرض اسطوانة معلقة بغير شيء في وسط الكون لا يمسكها غير وجودها على أبعاد متساوية من جميع الأشياء^(٣٤) . وهو يرى أن الشمس والقمر والنجوم تتحرك في دوائر حول الأرض . وأراد أنكسمندر أن يوضح هذا كله فصنع في اسبارطة مزولة (gnomon) - وأكبر الظن أنه قلدها فيها نماذج بابلية - أظهر فيها حركة الكواكب ، وميل الفلك(*) وتعاقب الانقلابين والاعتدالين والفصول^(٣٥) . وقد استطاع بمعاونة زميله ومواطنه هكاتيوس Hecataeus أن يجعل الجغرافية علماً ، وذلك برسمه أول خريطة معروفة للعالم المعمور(**).

ويقول أنكسمندر إن الدنيا في أول صورة لها كانت في حالة الميوعة ، ولكن الحرارة الخارجية جففت بعضها فكان أرضاً ، ونجرت بعضها فكان سحاباً ؛

(*) ودائرة فلك البروج هي الدائرة الكبرى التي تدور فيها الشمس في حركتها الظاهرية السنوية في السماء . وإذا كان مستوى الفلك هو أيضاً مستوى مدار الأرض ، فإن ميل دائرة البروج هو زاوية الميل (٢٣ °) بين مستوى دائرة خط الاستواء الأرضي ومستوى مدارها حول الشمس .

(**) لقد رسم المصريون قبله خرائط ولكنها كانت خرائط لأقاليم قليلة معدودة .

وإن اختلاف الحرارة في جوها الذى تكوّن بهذه الطريقة قد نشأت عنه حركة الرياح . ونشأت الكائنات الحية بمراحل تدريجية من الرطوبة الأولى ، وكانت الحيوانات الأرضية في بادئ الأمر سمكاً ، ولم تتشكل بأشكالها الحالية إلا بعد أن جفت الأرض . وقد كان الإنسان هو الآخر سمكة ولا يمكن أن يكون من أول ما ظهر على الأرض قد ولد بالصورة التي هو عليها الآن وإلا لكان عاجزاً عن الحصول على طعامه ، ولهلك^(٣٦)

وكان أنكسيمينز Anaximenes تلميذ أنكسمندر أقل منه شأنًا ، والمبدأ الأول عنده هو الهواء . ومن الهواء تنشأ جميع العناصر الأخرى بالتلطيف (تقليل الكثافة) وبه تحدث النار ، وبالتكثيف وبه تحدث على التوالي الرياح والسحب والماء والأرض والحجارة . وكما أن الروح وهى هواء ، تمسك أجسامنا فكذلك يكون هواء العالم (النوما pneuma) هو روحه السارية فيه كله أو نفسه أو الإله^(٣٧) تلك فكرة لا تنال منها جميع أعاصير الفلسفة اليونانية ، وتجد لها عاصمًا في الرواقية والمسيحية .

ولم تنتج هذه الأيام أيام مجد ميليتس وعزتها أقدم ما أنتجته الفلسفة اليونانية فحسب ، بل أنتجت أيضاً أقدم النثر وأقدم التاريخ الملمون في بلاد اليونان كلها^(*) . ويبدو أن قول الشعر أمر طبيعي في شباب الأمة حين يكون الخيال فيها أعظم من المعرفة وحين يجسد الإيمان القوى الطيبة في الحقل ، والغابة ، والبحر ، والجو . وإن من أصعب الأشياء على الشعر تجنب تجسيد القوى ومنحها روحاً ، كما أن أصعب الأشياء على هذا التجسيد وذاك المنح أن يتجنبنا الشعر . أما النثر فهو صورة المعرفة التي تخلصت من الخيال ومن الإيمان ، وهو لغة الشئون العادية الدنيوية غير الدينية ، وهو رمز نضوج الأمة والشاهد على انتضاء عهد

(٥) على القارئ الحكيم أن يضع لفظ المعروف ببد كلتى أقدم وأول وأصلها .

شبابها . وقد ظل الأدب اليوناني كله تقريباً إلى العصر الذي تحدث عنه (٦٠٠ ق . م) ، وتقل التعليم أخلاق اليونان وقصصهم شعراً لا نثراً ، بل إن الفلاسفة الأولين أمثال زونوفانيز ، وپرميدس ، وأنپدقليز قد ألبسوا نظامهم الفلسفي ثوباً شعرياً ؛ وكما أن العلم كان في بداية الأمر صورة من صور الفلسفة تكافح لتحرر نفسها من الصور العامة النظرية غير القابلة للتحقيق ، كذلك كانت الفلسفة في أول عهدها صورة من صور الشعر ، تحاول أن تتحرر من الأساطير ، وتجسد القوى ومنحها روحاً ، ومن التشابيه والاستعارات(*) .

ولذلك كان من الحوادث الهامة في تاريخ العلم أن يشرح فرسیدس Pherecydes وانكسمندر آراءهما نثراً . وقد بدأ رجال غيرهما في ذلك العصر نفسه يسميهم اليونان لوجوجرافوى أى الكتاب العقليين أو كتاب النثر ، بدءوا يسجلون بهذه الوسيلة الجديدة تواريخ دولهم ؛ فكتب كدموس Cadmus (٥٥٠) تاريخاً لميلتس ، وكتب يوجايون Eugaeon تاريخاً لساموس ، وكتب زانثوس Xanthus تاريخاً للبيديا . وفي أواخر ذلك القرن ارتقى هكتيوس Hecataeus الميلتي بالتاريخ والجغرافية رقياً عظيماً في كتابين يعدان فتحاً جديداً في هذين العلمين هما المسترئى Historiari أو البحوث والخص پرودوس Ges Periodos أو دورة الأرض . وقد قسم الكتاب الثاني الكوكب الأرضي قارتين هما أوروبا وآسية وضم مصر إلى آسية . وإذا كانت الأجزاء الباقية من هذا الكتاب حقيقيّة ؛ فإن فيها معلومات قيمة عن مصر سطا هيروودوت على الكثير منها دون أن يعرف بهذا . وقد بدأ كتاب البحوث بهذه العبارة القوية الدالة على تشككه : « إني أكتب ما أرى أنه حق ؛ لأن روايات اليونان في نظري كثيرة وسخيفة » . وكان هكتيوس يعد أفعال هومر تاريخاً وأخذ منها

(٥) للكاتب الإنجليزي اررد مكولي بحث طريف في هذا الموضوع تضمنته مقاله من ملتن وقد ترجمنا هذا المقال إلى العربية . (المترجم)

عدة قصص وهو مغمض العينين ، على أنه قد حاول محاولة شريفة أن يميز الحقائق من الأساطير ، وأن يتعقب الأنساب الحققة ، وأن يحاول الوصول إلى تاريخ اليونان يمكن الركون إليه . وجملة القول أن كتابة التاريخ اليوناني كانت قديمة العهد حين ولد « أبو التاريخ » .

وكان هكتيوس وغيره من الكتاب العقليين الذين ظهوروا في هذا العصر في معظم مدن اليونان ومستعمراتهم يفهمون من كلمة هستوريا(*) بحث الحقائق المتصلة بأية مادة من المواد العلمية ، سواء كانت متصلة بالعلوم الطبيعية أو بالفلسفة أو بكتابة التاريخ بمعناه الحديث . وكان لهذا اللفظ في أيونيا معنى يثير الريبة في نفوس أهلها ؛ فقد كانوا يفهمون منه أنه يراد به أن يستبدل بقصص المعجزات الخاصة بالآلهة وبالأياطال أنصاف الآلهة ، سجلات للحوادث الدنيوية وتفسير عقلية لعلل هذه الحوادث ونتائجها . وقد بدأت هذه العملية بهكتيوس ، وتقدمت على يد هيرودوت ، وبلغت غايتها على يد توكيديدس .

ويرتبط فقر النثر اليوناني قبل هيرودوت بهزيمة ميليتس وتغلب المغيرين عليها وقرها في العصر الذي بدأ فيه النثر . ذلك أن الاضمحلال الداخلى قد عهد السبيل للفاتحين كما جرت العادة في مختلف العصور ، وقد كان ازدياد الثراء وانتشار الترف سبباً في انغماس الناس في الملاذ ، وبدت الرواقية والوطنية في نظر الناس من المبادئ العتيقة السخيفة ؛ وجرت على ألسنة اليونان تلك العبارة التي يسخرون بها من أهل ميليتس : « لقد كان الميليديون شجعانا في يوم من الأيام (٢٨) » . واشتدت المنافسة بين الأهلين للحصول على طبيبات الحياة حين فقد الإيمان القديم قدرته على تخفيف النزاع بين الطبقات بيث مبادئ الرحمة والعدالة في

(*) وهي مشتقة من *istor* أو *hisor* ومعناها عارف ، وهي تيسر في النطق لكلمة *id-ter* المأخوذة من *id* في *eideneai* بمعنى يعرف . قارن هذا أيضاً بكلمة *wit* الإنجليزية في *wisdom* . وكلمة *Story* اختصا لكلمة *history* .

نفوس الأقيوياء والسلوى فى نفوس الضعفاء ؛ وأصبح الأغنياء وهم عماد الدكتاتورىة الأبحاركىة حزباً متحداً يقف فى وجه الفقراء المطالبىن بالدمقراطىة ؛ ولكن الفقراء استولوا على زمام الحكم ، وطرردوا الأغنياء من البلاد ، وجمعا من بقى من أبناء الأغنياء فى أماكن الدراس ، وأطلقوا عليهم الثىران فداستهم بأقدامها وقضت عليهم جميعاً . ثم عاد الأغنياء وقبضوا على أزمة الحكم وطلوا جلود زعماء الديمقراطية بالقار وأحرقوهم . أحياء^(٣٩) ؛ وستقال عنا هذه القصة فى مستقبل الأيام . ولما شرع كروموس فى عام ٥٦٠ يخضع إلى حكم لىديا ساحل آسية الصغرى اليونانى الممتد من نىدس إلى الهلسبنت (الدردنيل) حافظت ميليتس على استقلالها بامتناعها عن مساعدة أخواتها من الدول اليونانىة . ولكن قورش فتح لىديا فى عام ٥٤٦ ولم يجد صعوبة كبرى فى الاستيلاء على مدن أيونيا التى مزقتها الانقسامات الداخلىة ، وضمها إلى الدولة الفارسىة ، وانقضى بذلك عصر ميليتس المجد . إن العلم والفلسفة فى تاريخ الدول يصلان إلى غايتهما بعد أن يبدأ فيها الانحلال ، ذلك أن الحكمة نذير الموت .

٢ - بواىكراتىز الساموسى

على شاطىء الخليج فى مقابل ميليتس ، بالقرب من منافذ نهر المىندر **Maender** كانت تقوم بلدة مىوس المتواضعة أشهر مدائن الپرىنى **Priene** ، وكان يسكنها فى القرن السادس بىاس **Bias** أحد الحكماء السبعة ، ونقول سبعة وإن كان هرمىوس **Hermippus** يقول إنهم سبعة عشر ، لأن اليونان اختلفوا فى أسمائهم فوضع كل منهم أسماء غير التى وضعها الآخر . ولكن معظمهم متفقون على طاليس ، وصولون ؛ وبىاس ، وپتكوس **Pittacus** الملىبى ، وپرىندر الكورنى ، وشىلون **Chilon** الأسهارطى ، وكلىوبولوس **Cleobolus** اللندى (**Lindus**) من أعمال رودس . وكانت بلاد اليونان تعظم الحكمة كما

تعظم الهند الدين ، وكما عظمت إيطاليا في عهد النهضة العبقريّة الفنيّة ، وكما تعظم أمريكا الناشئة بطبيعة الحال المشروعات الاقتصادية . فأبطال اليونان لم يكونوا قديسين أو فنانيين أو من أصحاب الملايين ، بل كانوا حكماء ، ولم يكن أجل حكماهم هم أصحاب النظريات العلميّة ، بل كانوا رجالا جعلوا لحكمتهم عملا جدياً نشيطاً في العالم . وأصبحت أقوال هؤلاء الرجال حكماً وأمثالاً يتناقلها اليونان ، وكانت في بعض الأحيان تنقش على جدران معبد أبلو في دلفي . فقد كان الناس مثلاً مولعين بتريديد قول بياس ، إن أبأس الناس من لم يعرف كيف يصبر على البؤس ، وإن على الناس أن ينظموا حياتهم كما لو كانوا قد قدر عليهم أن يعيشوا طويلاً أو قصيراً ، وإن الحكمة يجب أن يعزبها وأن تكون وسيلة للانتقال من الشباب إلى الشيخوخة ، لأنها أتت من كل ما عداها مما يملكه الإنسان (٤٠) .

وإلى غرب بريفي تقوم جزيرة ساموس ثانية جزائر أيونيا في الاتساع . وكانت حاضرتها تقوم على ساحلها الجنوبي الشرقي ؛ وكان الإنسان إذا ما دخل موفأها الأمين ، ماراً بالسفن الحمراء الذائعة الصيت التي يتألف منها أسطول الجزيرة ، شاهد المدينة تقوم أمامه كأنها مشيدة من القرميد على سفح التل . وكان أول ما يشهده الأرصفة والحوائت ، ثم يرى بعدئذ البيوت ؛ ثم حصنها القائم على الربوة ، ثم هيكل هيرا العظيم ، ومنهن وراء هذه كلها سلاسل متتابعة من الجبال والقلل تعلو إلى خمسة آلاف قدم . لقد كان ذلك بلا ريب منظرًا يثير الحماسة الوطنيّة في قلب كل ساموسى .

ووصلت ساموس إلى أوج عظمتها في الربع الثالث من القرن السادس تحت حكم بوليكراتيز Polycrates . وقد استطاع هذا الطاغية بفضل المال الذي تدره عليه رسوم البناء أن يقضى فترة من البطالة كانت تنذر الجزيرة بأوخم العواقب ، فوضع خطة لإقامة منشآت عامة أثارَت إعجاب هيرودوت . وكان أعظم مشروعاته نفق في جبل ينقل الماء إلى المدينة مسافة ٤٥٠٠ قدم . وفي

وسعنا أن نستدل بعض الاستدلال على مهارة اليونان في الرياضة والمنهضة
إذا عرفنا أن الثقبين الذين بدأ من اتجاهين متضادين التقيا في وسط النفق ،
وأن الخطأ في تقديرهم عند التقائهما لم يزد على ثمان عشرة قلماً في الاتجاه
وعلى تسع أقدام في الارتفاع (١٠١) .

وكانت ساموس مركزاً من مراكز الثقافة قبل بوليكراتيز بزمن
طويل . ففيها عاش إيسوب صاحب الخرافات المشهورة ، وكان عبداً
فريجياً للادمون Lodmon اليوناني . وتقول إحدى الروايات التي لم تؤيد
بعد إن لادمون أعتقه وإن إيسوب سافر كثيراً والتقى بصولون ، وعاش
في بلاط كروسس ، واستولى على الأموال التي كلفه كروسس بتوزيعها في
دلتى ، وإنه لقي حظه على يد الدلفيين الذين اغتصب مالم (١٠٢) . وكانت
خرافاته التي أخذ معظمها من مصادر شرقية منتشرة بين الأينيين في عصر
بلادهم الأدبي . ويقول أفلوطرخس إن سقراط قد نظمها شعراً (١٠٣) ، وإن
ما فيها من فلسفة فلسفة يونانية خالصة ، وإن كانت الخرافات نفسها
مصوغة في قالب شرقى : « ما أحلى جمال الطبيعة ، والأرض والبحر ،
والنجوم وقرصى الشمس والقمر ، وأما ما عدا هذه فخوف وألم (١٠٤) ،
وخاصة إذا اغتصب الإنسان مال غيره ! ولا تزال حتى الآن نلتنى به
في الثائيكان حيث نراه على كوب من عصر بركابى ذى رأس أصاب الصلع
نصفه ولحية كلحية فانديك Vanoyke ، يستمع إلى ثعلب مرح يروى له
قصة ذات فائدة له (١٠٥)

وفى ساموس ولد فيتاغورس العظيم ، ولكنه غادرها في عام ٥٢٩ ليميش
في كروثونا بإيطاليا . وجاء أنكريوس من تيوس Teos إلى ساموس ليتغنى
بمحاسن بوليكراتيز ويربى له ابنه ؛ وكانت أعظم شخصية في بلاد بوليكراتيز
هى شخصية الفنان ثيودوس Theodorus ليوناردو ساموس ، الذى يعرف

(*) ولا يزيد الخطأ عند التقاء الثقبين في هذه الايام على بضع بوصات ، وقد لا يتعدى
ثمة خطأ على الإطلاق .

طرفاً من كل شيء ، ويجيد معظم ما يعرف . ويعزو إليه اليونان - ولعلمهم فعلوا هذا بعد بحث وتنقيب - اختراع ميزان الماء ، وزاوية النجار ، والمخرطة^(٤٦) . وكان ماهراً في الحفر على الجواهر ، كما كان يحترف صنع الأدوات المعدنية والحجرية والخشبية ؛ وكان مثالا ومهندسا معمارياً ، اشترك في تصميم المعبد الثاني لأرتيمس في إفسوس ، وشاد قبة عظيمة للجمعيات العامة في اسبارطة ، وساعد على إدخال تماثيل والنماذج الطينية إلى بلاد اليونان ، وشارك ريكوس Rhoecus شرف إدخال صناعة صب البرنز المخوف من مصر أو من آشور إلى ساموس^(٤٧) . وكان اليونان قبل ثيودورس يصنعون تماثيل برنزية غير متقنة بنشيت ألواح من المعدن على « قنطرة » من الخشب^(٤٨) ، أما في أيامه فقد استطاعوا أن يخرجوا من روائع الصناعة البرنزية أمثال راكب العربة في دلفي وقاذف القرص في بيرون . واشتهرت ساموس فضلاً عن هذا بفخارها ؛ ويثنى باني على هذا الفخار بقوله إن كهنة سيبيلا لم يكرنوا يستخدمون غير شقافة ساموس في حرمان أنفسهم من رجولتهم^(٤٩) .

٣ - هرقليطس الإفسوسي

وعلى الجانب الثاني المقابل لساموس من خليج كايسترا كانت تقوم إفسوس أشهر مدائن أيونيا ، وقد أنشأها حوالي عام ١٠٠٠ ق . م مستعمرون من أثينة . وكان اجتماع تجارة نهري كايشتر وميندر سبباً في رخاء المدينة . وكان في أصلها ، وفي دينها ، وفنها ، عنصر شرقي واضح . وكانت أرتيمز التي تعبد فيها من بداية أمرها إلى نهايته إلهة شرقية للأمم والحصوبة . وقد حدثت في هيكلها العظيم وفيات كثيرة وعاد فيه إلى الحياة خلق لا يقلون في عددهم عن مانو فيه . وقد شيد هيكلها الأول حوالي عام ٦٠٠ ق . م في موضع كان فيه من قبل هيكل قديم ، وأعيد بناؤه مرتين ودمر مرتين ، ولعله كان أول صرح

عظيم شيد على الطراز الأيرني . وشيد الهيكل الثاني حوالي عام ٥٤٠ وقد تم
كروسس جزءاً كبيراً من المال الذي أنفق في تشييده ، واشترك في تصميمه
بيونيوس الإفسوسي وثيودوروس الساموس ، ودمتريوس أحد كهنة الضريح .
وكان أكبر هيكل يوناني أقيم حتى ذلك الوقت ، وكان بعد بلا نزاع من
بين عجائب الدنيا السبع (٥٠) . ولم تشتهر المدينة ببياكلها وحدها ، بل
اشتهرت أيضاً بشعرائها ، وفلاسفتها ، وبناساتها ذوات الجلايب الغالية (٥١) .
وعاش فيها في ذلك الزمن البعيد أي حوالي ٦٩٠ ق . م كلنوس Callinus
أول من نعرف من شعراء المراثي في بلاد اليونان . وكان أعظم منه قدراً
وأقبح منه منظرأ هبوناكس Hipponax الذي ألف عام ٥٥٠ قصائد قبيحة في
موضوعها ، غامضة في ألفاظها ، لاذعة في فكاهتها ، دقيقة في وزنها
الشعري ، جعلت بلاد اليونان كلها تتحدث عنه ، وإفسوس كلها تحقد
عليه . وكان قصير القامة نحيل الجسم ، أعرج ، مشوها ، غاية في قبح
المنظر . ويقول في بعض ما بقى من إحدى قصائده إن المرأة تسبب السعادة
للرجل في يومين - « أحدهما يوم يتزوجها ، والثاني يوم يدفنها (٥٢) » . وكان
هجاء قاسياً هجا كل عظيم في إفسوس من أحقر المجرمين إلى أعظم كهنة
الهيكل ، ولما عرض المثلان بوپالوس Bupalus وأثنيس Athenis رسماً له
مضحكاً لطيفاً ، هجأهما في شعره هجوا قاذعاً بلغ من القذارة حدأ جعله
أبقى على الدهر من حجارتهم وأحد من أسنان الزمان .

وكان أعظم أبناء إفسوس كلهم هو هرقليطس الغامض Heracleitus the Obscure

(٥٠) وكانت العجائب الست الأخرى هي حدائق بابل المعلقة ، ومنارة الإسكندرية ،
وتماك رودس الضخم ، وزيوس فيدياس في أولمبيا ، وقبر موسولس في هليكرنيس ،
وأهرام مصر . ويصف باني الهيكل الثاني بقوله إنه يبلغ ٤١٥ قدماً في الطول ، ٢٢٥ قدماً
في العرض ، وإن به ١٢٧ عموداً يبلغ ارتفاعها ٦٠ قدماً - وكان بعضها مزداناً أو مشوهاً
بالنقوش (٥١) . وقد تم بناء هذا الهيكل في عام ٥٢٠ ق . م بعد كسح دام قرناً كاملاً ،
ثم احترق وتهدم في عام ٣٥٦ ق . م .

وقد ولد في عام ٥٣٠ من أسرة نبيلة ، ولذلك كان يرى أن الديمقراطية نظام خاطئ . ومن أقواله في هذا المعنى (١١١*) : « إن الفاسدين كثيرون والصالحين قلائل » و « عندي أن رجلا واحداً خير من عشرة آلاف إذا كان هو أحسنهم » (١١٣) . ولكن الأشراف أنفسهم لم يعجبوه ، كما لم يعجبه العلماء والنساء . وقد كتب في هذا المعنى خاصة بعبارة طريفة هي : « إن العلم الكثير لا يكون العقل ، ولو كان يكونه لأفاد هزيود ، وفيثاغورس ، وزنوفانيز ، وهكاتيوس » . (١٦) « لأن الحكمة الحققة الوحيدة هي معرفة الفكرة التي تسيطر بنفسها على كل شيء في جميع الأحوال » (١٩) . ثم خرج ، كما كان يخرج حكماء الصين ، ليعيش في شعاب الجبال ، ويجعل العقل في الفكرة الوحيدة التي يستطيع بها أن يفسر كل شيء . وترفع عن شرح ما هداه إليه تفكيره في ألفاظ يفهمها عامة الناس ، وأخذ يطلب في غموض الحياة وغموض الأقوال ملجأ يعصمه من متابعة الأحزاب والعامة الذين يقتلون الفردية ، ولذلك أخذ يعبر عن آرائه في أمثال جامعة غامضة في الطبيعة ، أودعها هيكل أرتيمز لنحير عقول الخلف .

وقد صُوِّرَ هرقليطس في الأدب الحديث بأنه يقيم فلسفته حول فكرة التغير ، ولكن من الصعب علينا أن نجد القليل الباقي من هذه الفلسفة ، ما يؤيد هذا التفسير . وقد كان يتوق كما يتوق معظم الفلاسفة للكشف عن العوامر المستتر وراء السكرة ، وعن وحدة تثبيت العقول ، ونظام بين ما في العالم من زحام وفوضى وكثرة . وقد قال في هذا المعنى قولاً لا يقل قوة وحماسة عن قول برميندز Parmenides (١) إن الأشياء كلها وحدة ؛ والمشكلة التي تواجهها الفلسفة هي أن تعرف ما هي هذه الوحدة . وقد أجاب هرقليطس عن هذا السؤال بأنها

(*) تشير الأعداد التي بين الأقواس إلى الباقي من أقوال هرقليطس كما رقمها باي ووتر

هي النار . ولعله كان في هذا الجواب متأثراً بعبادة الفرس للنار . وأكبر الظن أنه كان يستعمل هذا اللفظ استعمالاً رمزياً وحرفياً معاً ، ويقصد به الطاقة كما يقصد به النار نفسها ، كما نستدل على هذا من جمعه بين النار والنفس والله في معنى واحد . على أننا ليس في وسعنا أن نقطع برأى في هذا بالاستناد إلى القليل الباقي من فلسفته . انظر مثلاً إلى قوله : « إن هذا العالم ... لم يصنعه إله ولا إنسان ، ولكنه كان منذ الأزل ، وهو كائن ، وسيكون ، ناراً حية أزلية ، توقد بقدر ، وتنطفئ بقدر » . (٢٠) وكل شيء صورة من صور النار ، فهو إما في « طريق » النار « إلى أسفل » في تكثفها المتتابع إلى رطوبة ، فماء ، فأرض ؛ أو إلى « طريقها إلى أعلى » من الأرض ، إلى الماء ، إلى الرطوبة (*) ، إلى النار (٥٤) .

ومما يضابق هرقلطس في النار الخالدة أنها تتبدل تبديلاً لا يقف عند حد وإن كان يجد فيها ثباتاً يخفف عنه ما يسببه هذا التبدل من ضيق ؛ والمحور الثاني الذي يدور حوله تفكيره هو أبدية « هذا التبدل ووجوده في كل شيء ، فهو لا يجد قط شيئاً جامداً في الكون أو في العقل أو في النفس ؛ فلا شيء كائن بل

(*) وربما كان في عقل هرقلطس شيء يشبه نظرية السديم ، على النحو الآتي : يبدأ العالم ناراً ، (أو حرارة أو طاقة) ، ثم تستحيل غازاً أو أبخرة ، تتكثف وتسقط ماء ، وتتكون من رواسبها الكيميائية بعد أن تتبخر المواد الصلبة التي في الأرض (٥٥) ، والماء والأرض (أي السوائل والأجسام الصلبة) مرحلتان من عملية واحدة وصورتان من حقيقة واحدة (٢٥) . « الأشياء جميعها تتحول إلى نار ، والنار تتحول إلى جميع الأشياء » (٢٢) . وكل التغيرات « طريق إلى أسفل أو إلى أعلى » أي انتقال من إحدى صور الطاقة أو النار إلى صورة أخرى منها ، تارة أكثر منها تكثفاً وطوراً أقل - . والطريق إلى أعلى أو إلى أسفل واحد لا يمتيز « (٦٩) . والتلطيف والتكثيف حركتان في دورة دائبة من التغير ؛ والأشياء كلها تتكون في طريق الحقيقة إلى أسفل وهو طريق التكثف أو طريقها إلى أعلى وهو طريق التلطيف من النار ثم تعود مرة أخرى إلى النار ، والأشكال جميعها صور من طاقة واحدة كائنة وواحدة . وقد عبر اسهتوزا عن هذا بقوله : إن النار أو الطاقة هي المادة الخالدة الموجودة في كل مكان أو هي المبدأ الأساسي . والتكثيف والتلطيف (الطريق إلى أسفل أو إلى أعلى) هما خاصتان . وصورها الخاصة أو أساليبها هي الأشياء الظاهرة في العالم .

كل شيء صائر ، وليس ثمة حالة تبقى على حالها دون أن تتغير ، حتى في أقصر اللحظات ؛ فكل شيء دائم على الخروج عن حاله التي هو عليها ، صائر إلى ما سيكون عليه . وتلك حال جديدة من حالات الفلسفة تلتق من هرقليلس عناية وتوكيداً ، فهو لا يقتصر (كما يقتصر طاليس) على السؤال عن ماهية الأشياء في حاضرها ، ولكنه يسأل كما يسأل أنكسمندر ، ولكريشيوس ، واسينسر عن الطريقة التي أدت بها إلى ما هي عليه . وهو يشير ، كما يشير أرسطو ، إلى أن دراسة الحالة الثانية هي خير طريقة تعرف بها الأولى . ولسنا نجد فيما بقي لدينا من أمثاله المثل القائل : « كل شيء يسير ، ولا شيء يسكن » (Panta rei.ouden menei) ، ولكن الأقدمين على بكرة أبيهم يعزون هذا المثل إلى هرقليلس^(٥٦) : « إنك لا تستطيع أن تخلو خطوتين في نهر واحد ، لأن مياهها أخرى لا تنفك تجري إليك (٤١) » . « نحن كائنون ونحن غير كائنين » (٨١) ؛ والكون عنده كما هو عند هيجل صيرورة كبرى . والتضاعف ، والاختلاف ، والتغير حقائق لا تقل في ذلك عن الوحدة ، والذاتية ، والكيونية ؛ والتعدد حقيقة لا تقل في ذلك عن الوحدة^(٥٧) . فالتكثرة هي الوحدة ؛ وكل تغير ما هو إلا انتقال الأشياء نحو حالة النار أو منها إن الوحدة هي الكثرة ، وفي قلب النار نفسها يخفق التغير الذي لا يستقر أبداً^(٥٨) .

ومن هنا ينتقل هرقليلس إلى العنصر الثالث من عناصر فلسفته - وهو وحدة الأضداد ، واعتماد المتناقضات بعضها على بعض ، واتلاف الزراع . « الله هو الليل والنهار ، والشتاء والصيف ، والحرب والسلام ، والتخمة والجوع » (٣٦) . والخير والشرير واحد ، وكذلك الخير والشر ، (٥٧-٥٨) « والحياة والموت شيء واحد ، وكذلك اليقظة والنوم ، والشباب والشيوخة » (٧٨) لأن هذه

(٥) على القارىء أن يذكر على الدوام أن هرقليلس هو الفيلسوف الخامس ا

الأضداد كلها مراحل في حركة متقلبة ، ولحظات في النار الدائمة التغير ؛ وكل فرد في الزوجين المتضادين لا غنى عنه لمعنى الآخر ووجود ، والحقيقة هي توتر الأضداد وتفاعلها وتبادلها وتغيرها ووحدها وانسجامها . « وهم لا يفهمون كيف يتفق مع نفسه ما يختلف مع نفسه . وهنا يكون تطابق التوترات المتضادة ، كتطابق قوس الرامى وتر القيثارة » . (٤٥) فكما أن وتر الآلة الموسيقية إذا أرخيته أو شدته أحدث التآلف في الذبذبة الذي نسميه موسيقى أو نغمة ، فكذلك تبادل الأضداد وتنازعها يخلق جوهر تآلف الحياة والتغير ومعناهما . وفي النزاع القائم بين كائن حي وكائن حي ، بين رجل ورجل ، وبين رجل وامرأة ، وبين جيل وجيل ، وبين طبقة وطبقة ، وبين أمة وأمة ، وبين فكرة وفكرة ، وبين عقيدة وعقيدة ، تكون الأضداد المحتربة هي اللحمة والسدى على نول الحياة ، تعمل كل منها لغاية تناقض التي تعمل لها الأخرى ، لتنتج وحدة الكل غير المنظورة واتفاقه الخبوء . وأجل التطابق ما كان بين الأشياء التي تختلف » (٤٦) ؛ وليس هذا المعنى يخاف على كل عاشق

وهذه المبادئ الثلاثة جميعها - النار والتغير ووحدة التوتر في الأضداد - تدخل كلها في فكرة هرقلطس عن الروح والله . وهو يسخر من الذين « يسعون عبثاً ليطهروا أنفسهم من خفايا الدم بتدنيس أنفسهم بالدم » (١٣٠) ، ومن الذين يُصَلُّون إلى التماثيل القائمة هنا - ولا فرق بين من يفعل هذا وبين من يخاطب البيوت ؛ إن هؤلاء الناس لا يعرفون قط شيئاً عن طبيعة الآلهة الحقة » (١٢٦) . وهو لا يوافق فكرة الخلود الشخصية ، ويقول إن الإنسان أيضاً ، ككل شيء آخر ، لهب كثير التغير كثير التقلب ، « يشتعل ثم ينطفئ كالضوء في الليل » (٧٧) . والإنسان في هذه الحالة نفسها ، نار ؛ والنفس ، أو المبدأ الحيوي في الإنسان ، جزء من الطاقة الخالدة في الأشياء جميعها ؛ وهي بهذا الوصف لا تموت أبداً ، والموت وال ميلاد وتمتتان حددهما العمل البشرى المحلل

للأشياء تحديداً تعسفاً ؛ ولكنهما من وجهة نظر الكون الزبده الحالية من التحيزات لا تعدوان أن تكونا صورتين من صور تغير الأشكال التي لا تقف عند حد ؛ ففي كل لحظة من اللحظات يموت جزء منا ، ويميش الكل ، وفي كل ثانية يموت واحد منا وتبقى الحياة . والموت بداية كما هو نهاية ؛ والمولد نهاية كما هو بداية . وألفاظنا ، وأفكارنا ، وحتى أخلاقنا نفسها ، نزعات وأهواء ، وتمثيل لمصالحنا مجزأة أو مجتمعة ؛ ومن واجب الفلسفة أن تنظر إلى الأشياء الفردية في ضوء المجموع . « والأشياء كلها عند الله جميلة طيبة ، حقة ؛ ولكن الناس يرون بعض الأشياء خطأ ويرون بعضها صواباً » (٦١)

وكما أن الروح لسان عابر من لب الحياة المتغير إلى أبد الدهر ، فكذلك الله هو النار الخالدة الأبدية ، هو طاقة العالم التي لا تنفنى أبداً . وهو الوحدة التي تربط جميع الأضداد ، وهو الانسجام الكائن بين جميع التفاعلات ، وهو جماع المعاني في كل المشاحنات . وهذه النار المقدسة كالحياة (لأن كليهما توجد في كل مكان ، وهما شيء واحد) تغير شكلها على الدوام ولا تنفك تنقل إلى أعلى أو أسفل على سبيل التغير ، ولا تفتأ تبيد الأشياء وتعيد صنعها ؛ والحق أن سيأتي يوم بعيد « نتحكم فيه النار على جميع الأشياء وتدينها » ، (٢٦) تهلكها وتمهد السبيل لأشكال جديدة ، في يوم الحساب الأخير ، أو يوم الكارثة الكونية . بيد أن أعمال النار الخالدة ليست خالية من المعنى أو مجردة من النظام ؛ ولو أننا استطعنا أن نفهم العالم مجتمعاً ، لرأينا فيه حكمة عظيمة غير شخصية ، علما أو عقلا أو كلمة (٦٥) ؛ ومن واجبنا أن نحاول تشكيل حياتنا بحيث تتفق مع هذه السنة من سنن الطبيعة ، وهذا القانون العالمي ، هذه الحكمة أو الطاقة المنظمة التي هي الله (٩١) . « إن من الحكمة ألا تستمعوا إلى بل إلى الكلمة » (١) ، وأن تبشوا عن العقل اللانهائي للكل وتبعوه .

وحين يطبق هرقلطس على الأخلاق هذه القواعد الأربع الأساسية من أفكاره - الطاقة ، والتغير ، ووحدة الأضداد - وعقل الكل - ينير بعمله هذا سبيل الحياة كلها والسلوك كله . فالطاقة إذا سيطر عليها العقل ، واقترنت بالنظام ، نشأ عنها أعظم الخير . وليس التغير شرا بل هو خير وبركة ؛ « وفي التغير يجد الإنسان الراحة ؛ والإنسان يمل الكدح الدائم في الأشياء نفسها والبدء دائماً من جديد » (٧٢ - ٧٣) . وحاجة الأضداد بعضها إلى بعض تجعل نزاع الحياة وآلامها شيئاً معقولاً يمكن فهمه وغفرانه . « ليس حصول الناس على كل ما يرغبون فيه هو أحسن الأشياء ؛ فالمرض هو الذى يجعل الصحة سارة حاوة ؛ والشر هو الذى يفهم به الإنسان الخير ، والجوع هو الذى يفهم به الشبع ، والكدح هو الذى يفهم به الراحة » (١٠٤) . وهو يابوم الذين يرغبون في القضاء على ما في العالم من نزاع (٤٣) ؛ فبغير تشاد الأضداد لا يكون هناك تألف ، ولا ينسج نسيج حى ولا يحدث تطور . وليس الانسجام هو القضاء على النزاع وإنما هو تشاد لا ينتهى بانتصار عنصر على عنصر ، بل يعمل فيه العنصران دون أن يستغنى كلاهما عن الآخر (كتطرف الشباب وتحفظ المشيب) ، وتنازع البقاء ضرورى لكى يفصل الأطيب عن الأخبث ، وينشأ الأعلى . والنزاع والد كل شئ ومملك كل شئ ، وقد اختار البعض ليكونوا آلهة ، والبعض ليكونوا رجالاً ؛ وجعل البعض عبيداً ، والبعض أحراراً (٤٤) . وفي النهاية يكون التنازع هو « العدالة » (٦٢) . وتنافس الأفراد ، والجماعات ، والأنواع ، والأنظمة ، والإمبراطوريات يكونون محكمة الطبيعة العليا ، التى لا يستأنف حكمها ولا ينقض .

وفلسفة هرقلطس في جملتها ، كما نجتمعها لنا الآن مائة وثلاثون جلفاً

متفرقة ، تعد من أعظم نتاج العقل اليونانى . وقد انتقلت نظرية النار المقدسة إلى الرواقية ؛ كما انتقلت منها فكرة النار الأخيرة إلى المسيحية بطريق الرواقية

وكما صارت الكلمة أو عقل الطبيعة في اللاهوت المسيحي هي الكلمة الإلهية ، أو الحكمة المجسدة التي يخلق الله بها الأشياء كلها ويحكمها . وقد مهدت هذه الفلسفة إلى حد ما لفكرة القانون الطبيعي في الفلسفة الحديثة ؛ وأصبحت الفضيلة بوصفها إطاعة الطبيعة شعار الرواقية ؛ وانتعشت وحدة الأضداد انتعاشاً قوياً في فلسفة هيغل ، واستردت فكرة التغير في فلسفة برجسز Bergson ما كان لها من قوة ، وعادت إلى الظهور فكرة التنازع والكفاح المحددة لجميع الأشياء ، في فلسفة دارون ، واسبنسر ، ونتشه - وقد واصل آخروهم حرب هرقلطس ضد الديمقراطية بعد أربعة وعشرين قرناً .

ولا نكاد نعرف شيئاً عن حياة هرقلطس ؛ ولا نعرف عن موته إلا قصة لا سند لها رواها ديوجينيس ليرتس توضح لنا ما قد انتهى إليه حياة النواج الأفذاذ . ذلك أنه أصبح أخيراً شديد الكره للإنسانية ، فكان يقضى وقته يضرب في الجبال يقات بالمشب والنبات ، فأصابه بسبب هذا داء الاستسقاء ، وعاد إلى المدينة يسأل الأطباء ويحاورهم هل يستطيعون أن يحدثوا الجفاف بعد الجوع الرطب ؟ ولما لم يفهموه حبس نفسه في حظيرة ثيران ، وغطى نفسه بروث البقر ، لعل الرطوبة تتبخر منه بما يحدثه هذا الروث من دفء ، ولكن عمله هذا لم يفده شيئاً ، ومات بعد أن عاش من العمر سبعين عاماً ٥٨ .

٤ - أنكريون الثوسى

تقوم كاوفون Colophon على مسيرة بضعة أميال من إفسوس ، ولعل اسمها مأخوذ من اسم التل الذي تقوم على جانبه (*) وقد ولد فيها حوالي ٥٧٦ ق.م .

(*) من لفظ Kelophon اليوناني ومنه تل ويقابل باللاتينية collis وبالإنجليزية hill لما كان فرسان المدينة قد اشتهروا بإجهازهم حل قوى العدو المنهزم ، فقد أصبحت كلمة =

زنوفانيز الذي كان ييمض الكهنة ، وقد وصف مواطنيه بأنهم « يلبسون الثياب الأرجوانية الفاخرة ، ويعجبون بشعورهم المصنفة المضمخة بالزيوت العطرة الغالية » ؛ إن للزهو بلاشك تاريخاً طويلاً^(٦٠) . وكان الشاعر ممنرموس Mimnermus (٦١٠) يغنى في هذه المدينة . ولعله كان يغنى أيضاً في أزمير ، لأقوام سرى فيهم تشاؤم الشرق الواهن بأغانيه الحزينة عن الشاب والحب القصيرى الأجل . وشغف حباً بنانو Nanno الفتاة التي كانت توقع أغانيه على نغمات الناي الحزينة ، ولما لم تستجب إلى حبه (ولعل سبب امتناعها اعتقادها أن الشاعر إذا تزوج مات) خلد اسمها في قصيدة من الشعر الرثائي العذب الرقيق .

« نحن نزهر كأوراق الربيع ، حين تبدأ الشمس تتوهج وتلتهب ، وفي مسرات الشباب القصيرة الأجل لا نعرف من الآلهة خيراً ولا شراً ، ولكن الأرواح السوداء تقف دائماً عند الهدف ، تمسك في يدها عمراً واحداً محزناً وموتاً واحداً^(٦١) » .

وبعد مائة عام من ذلك الوقت كان شاعر آخر أعظم شهرة من أنكريون يعيش في مدينة تتوس القريبة من كلوفون ، ذلك هو أنكريون . وكان هذا الشاعر كثير الأسفار ولكنه ولد في أنكريون (٥٦٣) وتوفى فيها (٤٧٨) . وقد دعاه كثير من الملوك ليعيش في بلاطهم لأنه لم يكن ينافسه في بعد الصيت أحد من معاصريه إلا سمثيلس وحده . ونشده منضماً إلى جماعة من المهاجرين إلى أبدرا Abdera في تراقية ، وينخرط في سلك الجندي ، ويحارب في ساسلة أو سلسلتين من المعارك . ثم يترك درعه في الميدان كما كان يفعل الشعراء في زمانه ، ولا يستل بعدة إلا قلمه ، ثم يقضى بضع سنين في بلاط بوليكراتيس في ساموس ؛ ورجى به من هناك في موكب رسمي فخيم ، ليزدان به قصر هيباركس في أثينة ، ثم عاد آخر

الأمر إلى تنوس بعد الحرب الفارسية ليخفف عن نفسه العناء في شيخوخته وضعفه بالغناء والشراب . وكان جزاؤه على إفراطه في ملذاته أن عمر طويلاً حتى بلغ الخامسة والثمانين من عمره ؛ وكان سبب موته على ما نقل إلينا الرواة أن وقفت بذرة عنة في حلقه (٦٢) .

وقد عرفت الإسكندرية خمسة من كتب أنكريون ولكن لم يبق من أشعاره إلا بضعة أبيات مزدوجة . وكانت موضوعات شعره هي الخمر ، والنساء ، والغلمان ، وكان يلجأ فيه إلى المزاح اللطيف بصوغه في البحر العميق (iambic) الخفيف ه وأيا كان الموضوع الذي يطرقه فإنه لا يبدو للقارئ بديئاً أو غليظاً لأنه يصوغه في ألفاظ عفة وشعر رقيق . ولم يكن أنكربون مثل هبوناكس ذا ألفاظ بذيئة حادة ، أو مثل سافو في شدتها ، بل كان شاعر بلاط يعرض ثرثرته المهذبة الرقيقة على من يشتريها ، ويمتدح كل ملك يعجبه وابتاع له خمره . ويظن أنديوس أن أغانيه الخمرية ، وتقلبه في عشقه ، كانت كلها تصنعاً (٦٣) ؛ ولعل أنكريون كان يخفى وفاءه لكي يحظى بإعجاب النساء به ، كما كان يخفى اعتداله في الشراب ليزيد بذلك شهرته . وثمة قصة لطيفة تروى كيف صدمت قدمه وهو ثمل طفلاً صغيراً فأنهال عليه سباً بأقذع الألفاظ ، ثم أحب في شيخوخته هذا الغلام نفسه وكفر عن ذنبه بأن أخذ يكيّل له المدح (٦٤) . وكان لا يفرق في عشقه بين الذكور والإناث ، بل يحب الجنسين على السواء ، ولكنه لما كبر دفعته شهامته إلى تفضيل الإناث على الذكور . وقد جاء في بعض ما بقى لنا من شعره : « أنظر الآن ، إن الحب ذا الشَّعر الذهبي يضربني بكرته الأرجوانية ، ويدعوني لكي ألعب مع فتاة ذات حذاءين متعددي الألوان ، ولكنها تسكن لسبوس الشاحمة ، ولا يعجبها شعرى الأبيض وتذهب لتبحث لها عن ضحية أخرى (٦٥) » . وقد كتب أحد الكتاب الفكهين الذي عاش بعد عصره قبرة تكشف عن حقيقة أمره قال فيها :

« الشجرة الساحرة يا ربيبة الخمر ، يا كرمة ، أينمى وطولى فوق قبر أنكريون حتى يستطيع الصاحب الثمل صديق الشراب الصافي ، الذى كان يقضى الليل الطويل يقصف ويطرب وينشد على نغمت العود أغاني حب الغلمان ، حتى يستطيع ذلك الصاحب الثمل أن يعث بما فوق رأسه المدفون من عناقيد غصن ملىء مثقل ، وحتى لا ينفك يتل برضاب الندى الذى لم يكن شذاه الذكى إلا أنفاساً تخرج من فه الرقيق حين كبر^(٦٦) .

٥ - طشيوز ، أزمير ، فوسيا

تمتد أرض اليونان الاصلية من تنوس نحو الغرب فى خلجان وتوتوات أرضية متتالية ، حتى إذا قطع المسافر فى البحر عشرة أميال وصل إلى طشيوز Chios^(*) . وليس بعيد أن يكون هومر قد قضى شبابه فى هذه الجزيرة بين غياض التبى والزيتون والكروم الأنكرونية . وكان عصر نحمر من الصناعات الكبرى فى طشيوز ، وكان يشتغل به عدد كبير من الرقيق ؛ فقد كانت الجزيرة فى عام ٤٣١ تضم ٣٠٠٠٠٠ من الأحرار . ١٠٠٠٠٠٠ من الأرقاء^(٦٧) ، وأصبحت على مر الزمن سوقاً كبرى للنخاسة ، فكان النحاسون يتعاونون من الدائنين أبناء من عجزوا عن الوفاء بديونهم ، ويتعاون الغلمان ليجعلوهم خصياناً يخدمون فى قصور ليديا وفارس^(٦٨) .

وفى القرن السادس تار الأرقاء بزعامة زميلهم درمكوس Drimachus وهزموا جميع الجيوش التى أرسلت للقضاء عليهم ، واعتصم قائدهم ؛ كان منيع فى الجبال وفرص الإتاوات على الأغنياء من أهل الجزيرة ، ونهب أموال من يرى أن أهوالهم خليقة بأن تنهب ، وعرض عليهم « حمايته » نظير جعل معين كما يحدث

(٥) هنا هو الاسم التركى لهذه الجزيرة ولا تزال تعرف به الآن . (المترجم)

عندنا*) في هذه الأيام ، وأرغمهم بجهنمته على أن يعاملوا عبيدهم معاملة أقرب إلى العدل من معاملتهم السابقة ، وقطع رأسه باختياره وأوصى بأن يعطى لجماعة من أصدقائه حتى يحق لهم أن يطالبوا بالمكافأة التي وعد بها من يأتي به ، وظل مئات من الستين بعد موته يعد نصير الأرقاء والإله الحامي لهم (١٩) ؛ وتلك حياة ما أجدها أن تكون ملحمة طيبة يتغنى بها كاتب ثوري مثل حياة اسبارتاكوس . وازدهرت الآداب والفنون بين أحضان الثروة والرفق في طشيوز . وكانت الجزيرة مركز المومريين وهم رابطة من الشعراء المتتابعين ، وفيها ولد أيون Ion الكاتب المسرحي ، وتيوبويوس Theopompus المؤرخ . وهناك جلودكوس Glaucus (كما تقول الرواية المتواترة) حوالي ٥٦٠ صناعة طرق الحديد المحمي ، وهنا صنع أركرموس Archermus وولده بوبالوس وأنتيس أجل ما صنع من التماثيل في القرن السادس في بلاد اليونان .

وإذا عاد المسافر بعدئذ إلى أرض اليونان الأصلية مر بمواقع لإريثرا Erythra وكلازوميني Clazomenae - مسقط رأس أنكسجراس Anaxagoras معلم بركليز وصديقه . وبعدها من جهة الشرق على خليج صغير أمين تقع مدينة أزمير التي استقر فيها الإيوليون من زمن بعيد يرجع إلى عام ١٠١٥ ق . م (٧٠) ، ثم استحال بالهجرة والفتح مدينة أيونية . وكانت مدينة واسعة الشهرة في أيام أخيل ، وقد بهبها ألياتس Alyattes الليدي حوالي عام ٦٠٠ ق . م ، ودمرت بعد ذلك مراراً ، كان آخرها في عام ١٩٢٤ م على أيدي اليونان أنفسهم . وتنافس أزمير دمشق في قدم عهدها وطول حياتها ، وقد ذاقت صروف الزمان حلوها ومرها على السواء (**). ويدل ما بقي من مباني المدينة القديمة على ثرائها

(*) يريد في أم يكا .

(**) إن اسم المدينة القديم أزميرنا Smyrna واسمها الحديث أزمير يرتبطان في أغلب الظن بتجارة الصوف . وهي ثاني مدينة في تركيا من حيث تعداد السكان وأكبر مدينة في سية الصغرى .

وتنوع الحياة فيها ، فقد كشف في أرضها عن ملعب رياضي ، وحصن ، ومضمار للركض ، ودار للتمثيل . وكانت طرقاتها واسعة جيدة الرصف تزينا الهياكل والقصور ، وكان شارعها الرئيسي ، المعروف بالذهبي ، مشهوراً ذائع الصيت في بلاد اليونان بأجمعها .

وكانت أبعد المدن اليونانية شمالاً مدينة فوقية ، Phocaea ولا تزال قائمة إلى اليوم يطلق عليها اسم فوقية Fokia ؛ وكان نهر هرمس يكاد يصلها بسرديس نفسها فأكسبها هذا الاتصال مزية عظيمة في تجارة اليونان مع ليديا ، وكان التجار الفوقيون يسافرون أسفاراً بعيدة بحثاً عن الأسواق ، وهم الذين حملوا الثقافة اليونانية إلى قورسقة Corsica وأسسوا مرسيليا .

تلك هي مدائن أبونيا الاثنا عشرة ألقينا عليها نظرة عاجلة كأننا نطوف بها في رحلة جوية خلال الزمان والفضاء . لقد كان ما بين هذه المدائن من تنافس وتحاسد مانعاً لها من أن تكون فيما بينها وحدة تعينها على الدفاع المشترك ، ولكن أهلها مع ذلك كانوا يعترفون بما بينهم من تضامن واتفاق في المصالح ، وكانوا يجتمعون في مراسم معينة في ميكالى Mycale ، الأكمة الممتدة في البحر عند پرين Prien ، في عيد جميع الأيونيين Panionium العظيم . وقد طلب إليهم طاليس أن يؤثفوا منهم جماعة يكون فيها كل ذكر رشيد مواطناً في مدينته وفي الاتحاد الأيوني ، ولكن التنافس التجاري كان أقوى من أن يسمح بقيام هذه الجامعة ، بل إنه يدل أن يؤدي إلى الوحدة السياسية أدى إلى التقاتل والتطاحن ، ولما أن أقبل الفرس غازين فاتحين (٥٤٦ - ٥٤٥) واتحدت تلك المدائن اتحاداً مرتجلاً للدفاع عن نفسها ، كان هذا الاتحاد ضعيفاً واهى الأساس ، فلم تلبث المدن الأيونية أن

الأهلين من نزعة الاستقلال والتطاحن قد بعث في نفوس الجماعات الأيونية حب التنافس والحرص الشديد على الحرية .

وتلك هي الظروف التي نمت فيها في أيونيا العلوم ، والفلسفة ، والتاريخ ، ونشأت فيها العاصمة الأيونية ، ووجد فيها في الوقت نفسه الشعراء الكثيرو العدد الذين جعلوا القرن السادس في هيلاس يبلى خصيباً كالقرن الخامس . ولما أن سقطت أيونيا خلفت وراءها ثقافتها فورثتها أثينة التي حاربت الدفاع عنها ، كما انتقلت إليها الزعامة العقلية لبلاد اليونان جميعها .

الفصل الخامس

سافو اللسبوسية

وفي أعلى المدن الأيونية الاثنتي عشرة تقوم المدن الإيولية الاثنتا عشرة في الأرض القارية التي يسكنها الإيوليون والآخيون الذين وفدوا من شمالي بلاد اليونان ، بعد أن افتتحت آسية الصغرى للمهاجرين اليونان عقب سقوط طروادة . وكانت كثرة هذه المدن صغيرة ، وكان شأنها في التاريخ صغيراً كذلك . غير أن جزيرة لسبوس كانت تنافس المراكز الأيونية في الثروة ، والرفق ، والعبقرية الأدبية . وكانت تربة أرضها البركانية قد جعلتها جنة حقة من البساتين والكروم ؛ وكانت متليني أكبر مداتها الخمس ، وكانت تجارتها سيبياً في ثرائها العظيم الذي لا يكاد يقل عن ثراء ميليتس ، وساموس ، وإفسوس . وتحالفت طبقات التجار فيها مع مواطنيها الفقراء في أواخر القرن السابع ، وانزعوا الحكم من طبقة الملاك الأشراف وعينوا بتاكوس Bitacus الشجاع الفظ حاكماً بأمره مدة عشر سنين ، ووضعوا في يديه من القوة مثل ما كان في يدي صديقه وزميله الحكيم صولون . وأخذ الأشراف يأتمرون ليستعملوا سلطانهم ، ولكن بتاكوس رد كيدهم في نحرهم ، وتقى زعماءهم ومنهم ألكيوس Alcaeus وسافو ، فأخرجهم أولاً من متليني ثم من لسبوس نفسها آخر الأمر .

وكان ألفيوس ثائراً صخاباً ، خلط السياسة بالشعر ، فكانت كل قصيدة من قصائد مثاراً للفتنة والثورة . وكان شريف المتمد ، وهاجم بتاكوس بكل ما في اللغة من بذاعة استحق عليها النبي من البلاد . وقد صطنع هو وبحوره الشعرية التي أسماها من جاعوا بعده « ألفيوس » ؛ ويقال لنا إن كل مقطوعة في شعره كانت لها نغمتها الجميلة وسحرها . وقد غنى بعض الوقت في الحرب ،

ووصف بيته بأنه مزدان بالغنائم الحربية والدروع العسكرية . غير أنه لما
سئحت له الفرصة التي كان يستطيع أن يظهر فيها بطولته ، ألقى بدرعه ،
وفر كما فر أركلوكس من قبله ، وأخذ يمتدح نفسه لحصافته الباسلة .
وفد غنى أحياناً في الحب ، ولكن أحب الموضوعات التي كتب فيها إلى
نفسه كان موضوع الخمر التي اشتهرت بها لسبوس شهرتها في الشعر . وهو
ينصحنا بأن نعب الحمد عماً ، وأن ننقع بها غليلنا في الصيف ، وأن
نستقبل بها الموت بلا رهبة في الخريف ، وأن ندق بها دماغنا في الشتاء ،
ونحفل بها يبعث الطبيعة في الربيع .

يزل مطر زيوس ، وفي السموات العلا تثور العاصفة ،
ويمسك البَرْد بقبضته الثلجية مجارى الماء .
إذن فقم ! وتغلب على الشتاء ، وأشعل النار عالية ، عالية -
وامزج الخمر الكثيرة حلوة كشهد النحل ؛
ثم اشربها ولقاعة الصوف المريحة قد لفت حول صدغيك .
إن علينا ألا نستسلم للأحزان أو نضنى أجساماً بكثرة
المشاغل التي تذهب بقوانا ؛
لأن الحزن يا صاح لا يعود علينا بأقل نفع ،
ولا يصلح حالاً " بأى حال ؛
أما خير دواء لنا
فهو الخمر نظرد بها لأفكار (٧٣) (*)

ولقد كان من سوء حظه - وإن كان قد تحمل هذه الكارثة بصدر
رحب ولم يلق بالا لإليها - أن كان بين معاصريه امرأة هي أشهر نساء اليونان
أجمعين ، ونعنى بها سافو . وكانت بلاد اليونان بأجمعها تعظمها حتى قبل أن

تموت ، ومن أقوال استبايوس Stobaeus فيها : « وحدث مرة في مجلس شراب أن أخذ إجزستيديس Excectidez ابن أخى صولون يعنى أغنية من أغاني سافو ، أعجب بها عمه إعجاباً لم يسهه معه إلا أن يأمر الغلام أن يعلمه إياها ، ولما سأله أحد الحاضرين : « لم يطلب هذا الطلب ؟ » أجاب بقوله : « لئى أريد أن أتعلمها ثم أموت ! » (٧٣) . وكان سقراط - ولعله كان يرجو مثل ما يرجوه صولون لنفسه - يسميها « الحميلة » ، وكتب فيها أفلاطون مقطوعة شعرية حماسية قال فيها :

يقولون إن ربات الشعر تسع ، ألا ما أكثر غباءهم
فليعلموا أن سافو اللسبوسية هي العاشرة ! (٧٤) .

ويقول استرابون : « كانت سافو امرأة فذة عجيبة ؛ لئى لا أعرف أن قد وجدت في جميع العصور التي وصل إلينا علمها امرأة أوتيت معشار ما أوتيت سافو من النبوغ في قرض الشعر » (٧٥) . وكما أن الأقدمين إذا ذكروا لفظ « الشاعر » فإنما يعنون بهذا اللفظ هومر ، كذلك كان العالم اليونانى كله إذا نطق أمامهم أحد بلفظ « الشاعرة » فهموا من فورهم من يعنون بهذا الاسم .

وقد ولدت بسافا Psappha كما كانت تسمى نفسها بلهجتها الإيولية الرقيقة ، في إرسوس Eresus من أعمال لسبوس حوالى ٦١٢ ق . م ، ولكن أمرتها انتقلت إلى مثنى وهي لا تزال في المهدي . وكانت في عام ٥٩٣ بين الأشراف الذين ائتمرا بپثاكوس والذين نفاهم إلى مدينة پيرا Pyrrha ؛ ولما بلغت التاسعة عشرة كانت ذات شأن في الحياة العامة لاشتغالها بالسياسة ، ويقول الشعر . ولم تشتهر بجمالها ، فقد كانت صغيرة الجسم ، ضعيفة البنية ، وكان شعرها وعيناها ، وبشرتها أسود مما يحبه اليونان (٧٦) ، ولكنها كانت تسحر الناس برشاقها ، ورقتها ، ودماثة أخلاقها ، وحصافة عقلها الذى لم يبلغ من « السفسطة » درجة تخفى رقتها وحنانها . ومما قاله هى عن نفسها : « إن قلبى كقلب الطفل » (٧٧) ، ويستدل من شعرها

على أنها كانت ذات عواطف جياشة، وأن ألفاظها كما يقول أفلوطرخس
« كانت تمزج باللهب » (٧٨) ؛ وكانت مرهفة الحس إلى حد ما ، وكان هذا
سبباً في الحد من حماسة عقلها . وقد وصفها أئيس تلميذها المقرب إليها
بأنها كانت ترتدى الثياب الزعفرانية اللون والأرجوانية ، وتتوج رأسها
بالزهر ؛ وما من شك في أن قوامها النحيل قد أكسبها ملاحظة وجاذبية ،
وشاهد ذلك أن لفيوس الذى نبي معها إلى پيرا أرسل إليها مسرعاً رسالة
عشق وهيام قال فيها : « أى سافو ! يا ذات التاج القرنفلى ، يا طاهرة ،
يا ذات الابتسامة الحلوة ، أريد أن أحدثك في أمر ولكن الحياء يمنعني أن
أنتطق به » . وكان جوابها أقل غموضاً من اقتراحه « لو كانت رغباتك
طيبة نبيلة ، ولو كنت تريد ألا تنطق لسانك بما هو ذئب ، لما أسدل
الحياء على عينيك غشاوة ، ولأفصحت عن رغباتك الطيبة العادلة » (٩٧) .
وأخذ الشاعر يتغنى بمدحها في قصائده وأناشيدته ، ولكننا لا نعرف أن صلة
غير هذه الصلة قد عدت أواصرها بينهما ، ولعلهما قد ائترقا حين نفيت
سافو للمرة الثانية ، وكان سبب نفيها أن يتاكوس قد خشى قلمها بعد
نضوجه فتفاها في هذه المرة إلى صقلية ، وكان ذلك في أغلب الظن عام
٥٩١ ، وهى في سن يكاد الإنسان يظنها فيها فتاة لا تستطيع أن تؤذى إنساناً .
وقد تزوجت حوالى ذلك الوقت بتاجر ثرى من أندروس Anodros ،
وكتبت بعد بضع سنين من ذلك الوقت تقول : « لى ابنة صغيرة شبيهة
بالزهرة الذهبية ، هى كليس Cleis قرة عيني ، التى لا أفرط فيها ولو
أعطيت ليديا كلها أو لسبوس الحبيبة » (٨٠) . وما من شك في أنها كان في
وسعها أن ترفض ما في ليديا من ثروة لأنها ورثت ثروة زوجها بعد وفاته
المبكرة ، وعادت إلى لسبوس بعد أن أقامت في منفاهها خمس سنين ، وأضحت
زعيمة الحياة الاجتماعية والعقلية في الجزيرة . ولإنا لنلمح بهرج الترف في
إحدى القطع الباقية من شعرها حيث تقول : « أما أنا فليكن في علمكم أنى
أحب الحياة اللينة ، وأرى أن النور والجمال ماتشبهه الشمس » (٨١) . وأضحت وثيقة

الصلة بأخيها الأصغر كركسوس Charaxus ، شديدة التعليق به ، وغضبت أشد الغضب حين شغف في إحدى سفراته التجارية إلى مصر بحب محظية تدعى دريكا Doricha ثم تزوجها ، ضارباً بتوسلات أخته عرض الحائط (٨٢) .
وفي هذا الوقت أحست سافو بنار الحب تشتعل في قلبها . ذلك أن نفسها تافت إلى الحياة النشيطة ، فأنشأت مدرسة للفتيات ، تعلمهن فيها الشعر والموسيقى والرقص ، كانت هي أولى « مدارس صقل » الفتيات في التاريخ كله : ولم تكن تسمى الطالبات فيها تلميذات بل كانت تسمين الرفيقات (hetairai) ، ولم تكن هذه الكلمة قد أصبح لها بعد معنى الاختلاط الجنسي الشاذ . وأحبت سافو - وكانت وقتئذ أرملة - هاته الفتيات واحدة بعد واحدة . وقد قالت في إحدى القطع الباقية من أشعارها : « لقد هز الحب قلبي كما تهز الريح القوية أشجار البلوط (٨٣) » . وتقول في إحدى القطع الأخرى : « لقد أحبيتك يا أثيس من زمن بعيد ، حين كانت أتوتني كلها أزهاراً ، وقد حسبتك وقتئذ طفلة صغيرة سمجة » . فلما أن تقبلت أثيس حب شاب من متليني ، عبرت سافو عن غيرتها بالأفاظ تبلو فيها قوة العاطفة في قصيدة احتفظ بها إلينا لنجينس وترجمها ترجمة عرجاء جون أدنجتن سمندس في شعر من البحر الساقى :

إنه ليبدو لي هو والآلهة سواء ، ذلك الرجل السعيد الذى يجلس ويراك بعينه أمامه . فهو يجلس بالقرب منك ويستمع إليك وهو معقود اللسان يتحدثين حديثك الفضى وتضحكين ضحك الحبيب في غير صوت عال . إن هذا ، هذا وحده ، ليكفى لأن يثير قلبي المكلوم في صدرى ويبعثه على الاضطراب ! لأنى إذا رأيتك لحظة قصيرة خشع صوتى من فورى ، وانعقد لساني ؛ وسرت في ضلوعى نار تطفى بسمع من حولى حسيسها ، ولا تبصر عيناى منها شيئاً ، وتظن في أذنى أمواج من الصوت عالية ، ويتصعب جسمى عرقاً فيجرى أنهاراً ، وترتجف جميع أعضائى ، ويصبح لوفى أكثر اصفراراً من لون الكلاؤ فى الحريف ، وتنتابنى

الام الموت المترصد لى فأضطرب وأضل فى سكرات (*) الحب (٨٤) .
وأخرج والدها أنيس ابنتهما من المدرسة ، ولدينا رسالة تعزى إلى سافو
نفسها تصف فيها ساعة فراقهما :

بكت (أنيس ؟) بكاء مرأ لفراقنا وقالت : « واحسرتاه ما أنعم
حظنا ؛ وأقسم لك يا سافا أن فراقى لإياك كان على الرغم منى » ، فأجبتها :
« سبرى فى طريقك منشرحة الصلر ؛ ولكن اذكرينى لأنك تعرفين هيامى
بك . فإذا لم تذكرينى ، فىنى سأذكرك بما تنسين ؛ ألا ما أعز وأجل الأيام
التي قضيناها معاً ! لقد كنت تزينين غداثرك المتأوجة بتيجان القرفل
والورد الجميل وأنت إلى جانبى ، وتزينين جيلك الرقيق بعقود مجدولة من
مئات الأزهار ، وبالأدهان الكثيرة الغالية الخليقة بالملوك دهنت إهابك
الأبيض النضر وأنت بين ذراعى . ولم يكن فى المكان كله تل ، أو موضع
مقدس ؛ أو غدِير ماء لم تذهب إليه ؛ ولم تملأ الأصوات الكثيرة فى بواكير
الربيع غابة من الغابات بسجع العندليب إلا ذهبت إليه معى (٨٥) .

وتأتى بعد هذه الأغنية فى نفس المخطوط تلك الصيحة المريرة : « لن
أرى أنيس بعد اليوم ولا فرق عندى بين هذا وبين الموت » . إن هذا
بلا ريب هو صوت الحب الصادق ، الذى يعلو ذروة الوفاء والجمال
ويسمو فوق الخير والشر !

وقد ثار الجدل بين من جاء بعد ذلك العصر من علماء التاريخ القديم
واختلفوا هل هذه القصائد تعبر حقاً عن « الحب اللسبوسى » أو أنها لم تكن
إلا تدريباً للخيال الشعرى ولتجسيد المعانى المجردة . ولكننا لا شأن لنا بهذا

(٥) ولقد ترك لنا سونيرن مثلاً من هذا البحر خيراً مما تركه جون أدنجن سننيس
وصف حب سافو فى قصيدة رائعة سماها « السافيات » فى كتابه Poems and Ballads
مظلمها : لم يطرُق جفون الكرى طول الليل .

الجلد ، وحسبنا أن هذه القصائد شعر من الطراز الأول جياش بالعاطفة ، قوى الخيال ، يبلغ حد الكمال في لفظه ومبناه . وفي قطعة باقية منه حديث عن « وقع أقدام الربيع المزهرة » ؛ وفي قطعة أخرى حديث عن « الحب الذى يفكك الأعضاء ، والعذاب المر - الحلو » وتُشَبَّه قطعة ثالثة الحبيب البعيد المنال « بالتفاحة الحلوة التى تحمر على طرف الغصن ، على الطرف الأعلى للغصن ، والتى سها عنها الجاني ، لالم ينسها بل إنه لم يستطع لعلوها أن يصل إليها^(٨٦) » . وكتبت سافو عن موضوعات أخرى غير الحب ، واستخدمت فيها بحوراً من الشعر بلغ عدد ما بقى لنا منها خمسين بحراً . وقد لحنّت هى بنفسها أغانيها ووقعتها على العود . وجُمع شعرها فى خمسة دواوين تحتوى نحو ألف بيت ومائتين ، بقى منها ستمائة بندر أن تكون متالية . وحدث فى عام ١٠٧٣ بعد الميلاد أن أمر رؤساء الكنيسة فى القسطنطينية ورومة بإحراق جميع أشعار سافو وألفيوس علناً^(٨٧) ، وفى عام ١٨٩٧ كشف جرنفل Grenfel وهنت Hunt فى أكسرنكوس Oxyrhynchus بمديرية الفيوم توابيت مصنوعة من طبقات من الورق استخدمت فى صناعتهم نطع من كتب قديمة ؛ وجدت عليها بعض قصائد سافو^(٨٨) .

وقد ثار ذكور الأجيال التالية لأنفسهم منها بأن نقلوا عنها ، أو اخترعوا من عندهم ، قصة تروى كيف ماتت قتيلة هيامها برجل لم يبادلها الحب . وثمة فقرة فى معجم سويداس Suidas^(٨٩) تروى كيف قفزت « العاهر سافو » - وهو الوصف الذى توصف به الشاعرة عادة - من فوق صخرة فى جزيرة لوكاس Leucas قفزة قضت بها على نفسها ، لأن البحار قاوون لم يستجب لحبا . ويشير مناندر ، واسترابون ، وغيرهما من الكتاب إلى هذه القصة ، ويرونها أوّثد فى تفاصيل جميلة^(٩٠) ، ولكننا نجد فيها حوادث كثيرة من نسج الخيال ، وخلق بنا أن نتركها من غير تمحيص حائرة بن الحقيقة والخيال . وتقول الروايات المتواترة إن سافو عادت فتعلمت حب الرجال . ونجد فى القطع الصغيرة التى

كشفت أشعارها في مصر جواباً لها مؤثراً ردت به على اقتراح عرضه عليها بعضهم بأن تتزوجه فقالت « لو أن ثديي قد بقيا قادرين على إرضاع الأطفال ، ولو أن رحمي قد بقى قادراً على حملهم ، بلحثت إلى فراش الزوجية بقدمي ترتجضان ، ولكن الزمان قد خط على جسدي خطوطاً كثيرة ، والحب لا يسرع إلى بما يحمله من هدايا الآلام » ، ثم تشير على خطيبها بأن يبحث له عن زوجة أصغر منها سناً (٩١) . وفي الحق أننا لا نعلم متى ماتت وكيف قضت نحبها ، وكل الذي نعرفه أنها خلفت وراءها ذكريات واضحة من العاطفة القوية ، والشعر الرائع ، واللطف والدعة ، وأنها يزت ألفيوس نفسه فكانت أشجى أهل زمانها صوتاً . وتراها في آخر قطعة لها تلوم في غير عنف من لا يقرون بأن غناءها قد انتهى فتقول :

« إنكم يا أطفالى مجللون بالعار هبات ربات الشعر القيمة حين تقولون :
« سنتوجك يا سافو الحبيبة ، يا خير من يعزف على القيثارة أوضح الأغاني وأشجاها ، ألا تعرفون أن إهابي كله قد تجعد من طول العمر ، وأن شعري قد استحال من أسود إلى أبيض ؟ . . وكما أن الليل ذا النجوم يخلف حتماً الفجر ذا الذراع الوردية وينشر الظلام في طول الأرض وعرضها ، كذلك يقتني الموت آثار كل حي ويمسك بتلابيبه آخر الأمر » (٩٢) .

الفصل السادس

الإمبراطورية الشمالية

في شمال لسبوس تقع تندوس Tenedos الصغيرة التي يقول بعض الرحالة الأقدمين إن نساءها أجهل النساء في بلاد اليونان جميعها^(٩٣) ، ومنها يسير الإنسان في أثر اليونان المغامرين إلى جزائر اسبرديس الشمالية ؛ إلى إمبروس ، ولنوس ، وسمثريس . وأنشأ الميليزيون حولي عام ٥٦٠ في سمهم للإشراف على المهلسنت (الدردنيل) بلدة أبيدوس Abydos على شاطئه الجنوبي ، ولا تزال هذه البلدة قائمة حتى الآن^(*) . ومن هذا المكان قطع ليندر Leander وبيرون Byron المضيق سباحة ، ومنه عبر جيش خشيارشاي البحر إلى أوروبا على جسر من القوارب ، وإلى شرق هذه البلدة استعمر الفوقيون لمباكوس Lampacus مسقط رأس أبيقور . وفي داخل البروبنتس مجموعتان من الجزائر ، أولاهما مجموعة الفقونيسوس Phoconnesus ، وهي غنية بالرخام الذي أكسب البروبنتس اسمه المعروف به في هذه الأيام (بحر مرمره - أي بحر الرخام) وثانيتها مجموعة الأركنتيسوس Arctonnesus . وفي أقصى طرفها الجنوبي أنشأ الميليزيون في عام ٧٥٧ نغر سيزكوس Cyzicus العظيم . وقامت على طول الساحل مدينة في إثر مدينة : پنورموس Panormus ، ودسيليوم Dascylium ، وأپاميا Apameia ، وكبوس Cius ، وأستكوس Astacus ؛ وخلقدون Chalcedon . وتقدم اليونان مجتازين مضيق البسفور ، طلباً للمعادن والحبوب والتجارة ، وأنشأوا كرسبوليسر .

(٥) كل المدن المذكورة في هذا الباب تقريباً لا تزال قائمة حتى اليوم ، وإن سميت

بأسماء غير أسمائها القديمة .



(شكل ۱۰) پر كلينز
(المتحف البريطاني)



(شكل ۱۱) ايتيمور
(متحف نيويوروك)

Chrysopolis (اشقودار الحالية) نتقوبوليس Ncopolis ، مدينة النصر ، ثم شقوا طريقهم على طول الشاطئ الجنوبي للبحر الأسود ، وأقاموا مدائن في هرقلية ، وبنتيكا Tieum ، وتوم Pontica ، وسينوب Sinope - التي يصفها استرابون بأنها مدينة مزدانة أفخم زينة^(٩١) ، بها ملعب رياضي عظيم ، وساحة كبرى ، وأروقة مظلة ذات عمد ؛ وكانت خليلة بأن يولد فيها ديوجين الكلبى Diogenes the Cynic ؛ ثم تلبها أميسس Amisus ، وإينوى Oenoe ، وتريبوليس Tripolis ، وتراپيزوس Trapezus (تريبند أوطربزون) ، والتي صاح فيها رجال زنونون العشرة الآلاف من فرط السرور حين أبصروا البحر الذي طالما تافت نفوسهم لرويته . وقد كان افتتاح هذا الإقليم للاستعمار ، على يد جيسن في أكبر الظن ، ثم على أيدي الأيونيين فيما بعد ، مصرفاً ينزح إليه من تفيض بهم المدائن الأصلية من السكان ، وتنصرف إليه تجارتها ، كما جعلها هذا الفتح مورداً للطعام والفضة والذهب ، شأنها في ذلك شأن أمريكا بالنسبة لبلاد أوروبا في بداية العصر الحديث^(٩٢) . واتجه اليونان نحو الشمال بإزاء الساحل الشرقى لبحر اليوكسين حتى وصلوا إلى كلكيرز Colchis المدينة وأسسوا فاسيس Phasis ، وديوسكورياس Dioscurias ، وثيودوسيا Theodisia ، وبنتيكبيوم Panicapaeum في شبه جزيرة القرم . وأنشأوا عند مصبى نهري البوج Bug والدنيبر مدينة ألبيا Olbia (نيقولايف الحالية) وعند مصب الدنيستر أسسوا مدينة تيراس Tyras ، وأقاموا على نهر الدانوب مدينة ترسميس Troesnis . ثم اتجهوا جنوباً على طول الشاطئ الغربى وشادوا مدائن إستروس Istrus (قنسطنطة أوقسطج) ، وتومى Tomi (التي مات فيها أوفد) ؛ وأدسوس (وارنة) ، وأبولونيا Apollonia (برجاس) . وإن الرحالة الذى يدرك طول الأعصر التاريخية ليذهله قدم هذه المدائن التي لا تزال باقية حتى الآن ،

ولكن سكانها الحاليين المهتمكين في أعمالهم الحاضرة لا يشغلون أنفسهم بالقرون الطوال المستقرة في بطون الثرى تحت أقدامهم .

وأنشأ المجاريون أيضاً على البسفور حوالى عام ٦٦٠ مدينة بيزنطيوم (بيزنطية Byzantium (*)) التى كانت إلى عهد قريب تسمى القسطنطينية والتي تسمى الآن اسطنبول . وقد كان هذا الثغر ذو الموقع الحربى المنيع حتى قبل أيام بركليز مفتاح أوروبا كما سماه نابليون فى معاهدة تلتز Tilsit . وقد وصف بوليبيوس فى القرن الثالث قبل الميلاد موقعه البحرى بأنه « مز حيث السلامة والرخاء خير من موقع أية مدينة أخرى فى العالم المعروف لنا(٩٧) » . وازدادت ثروة بيزنطية بما كانت تفرضه من المكوس على السفن المارة بها ، وبما كانت تصدره إلى العالم اليونانى من حبوب روسيا الجنوبية (« سكوديا » Scythia) والبلقان ، وبما كان يصاد بلا أدنى عناء من السمك الذى يتجمع فى المضائق الضيقة . وقد كان التواؤمها ، وما تفيضه عليها صناعة الصيد من ثرائها اللذين خلعا على المدينة اسم « القرن الذهبى » ، وكانت أثينة فى عصر بركليز هى المسيطرة على سياسة بيزنطية ، وكانت تفرض المكوس على السفن المارة لتملأ بها خزائنها فى أوقات الشدائد ، وتعامل إصدار الحبوب من موانى البحر الأسود معاملة مهربات الحرب(٩٨) .

وأنشأ اليونان على الشاطئ الشمالى أو التراقى للبروبنتس مدائن عند سلمبريا Selymbria . وپرنثوس Perinthus (لرجلى Eregli الحديثة) وبيزنتى Bisanthe ، وكالبيوس Callipolis (غالبيولى) ، وستوس Sestus . ثم أقاموا فيما بعد مدناً أخرى على ساحل تراقية الجنوبى الغربى عند أفروديسياس Aphrodisias ، وإينوس Oenus ، وأبدرا Abdera — حيث قام ليوسپوس

(*) ونراجع أن اسمها مشتق من لفظ بيزاس Byzas أى الملك الوطنى .

Leucippus ودمقراطوس Democritus بعد ذلك العصر بنشر الفلسفة المادية اللرية(*) وأمام ساحل تراقية في البحر تقع جزيرة ثاسوس Thasos ، « الجرداء القبيحة المنظر كأنها ظهر حمار في البحر » كما وصفها أركلوكوس(٩٩) ، ولكنها كانت غنية بمناجم الذهب غنى جعل منتجاتها منه تقي بنفقات الأداة الحكومية كلها . وأنشأ الباحثون عن الذهب من اليونان وخاصة الأثينيون على ساحل مقنونية الشرقى أوبالقرب منه مدينتي نيوليس Neapolis وأمفيوليس Amphipolis - وكان استيلاء فليب على هاتين المدينتين سبباً في اشتعال نار الحرب التي خسرت فيها أثينة حريتها . واستولى يونان آخرون معظمهم من كلسيس وإرتريا على شبه جزيرة كلسدس Chalcidice ذات الأصابع الثلاث وسموها بهذا الاسم . وما وافى عام ٧٠٠ ق . م حتى كانوا قد أنشأوا فيها ثلاثين بلدة قدر للكثير منها أن تكون ذات شأن عظيم في تاريخ اليونان : استاجيروس Stageirus (مسقط رأس أرسطاطاليس) وسيوني Scione ، ومندى Mende ، وبوتيليا ، وأكتوس Acanthus ، وكليني Cleonae ، وتوروني Torone ، وأولثوس Olynthus التي استولى عليها فليب في عام ٣٤٨ والتي تشتهر عندنا لصلتها بمخطب دمتين . وقد كشفت أعمال الحفر الحديثة في أولثوس عن مدينة واسعة الرقعة ذات بيوت كثيرة من طابقين يحتوى بعضها خمسا وعشرين حجرة . ويبدو أن هذه المدينة كان يسكنها في أيام فليب نحو ستين ألف نسمة . وفي وسعنا أن نستدل من هذا العدد الكبير الذي كان يقيم في مدينة صغيرة على سرعة تناسل اليونان قبل عصر بركليز ونشاطهم وسرعة انتشارهم

وآخر ما نذكره عن انتشار اليونان أن المهاجرين الأيونيين استقروا في الجزائر العويبة الواقعة بين كلسدس وجزيرة عويبة الكبيرة ، وهي جبرونيا Gerontia ،

(٥) هي الفلسفة المتعاقلة بأن العالم يتكون من ذرات ترتب نفسها فيه في صور مختلفة (المترجم)

وبوليغوس Polyaeos ، ، وإيكوس Icos ، وبيارثوس Peperethos ،
واسكانديل Scandile ، واسكيروس Scyros ؛ وهكذا انطبق محيط
الإمبراطورية في الشرق والشمال انطباقا تاما والتقى طرفاه . وبفضل نشاط
اليونان ومغامراتهم استحال جزائر بحر إيجه وسواحل آسية الصغرى ،
وشواطئ الهلسينث ، والبحر الأسود ، وسواحل مقدونية وتراقية معششا
من المدائن المصطبغة بالصبغة اليونانية ، تفيض بالأعمال الزراعية والصناعية ،
والتجارية ، وبالنشاط السياسي ، والأدبي ، والديني ، والفلسفي ، والعلمي ،
والفني ، وبالبلادة ، وبالسفسطة ، والمحاكاة . ولم يبق أمام اليونان في
ذلك الوقت إلا أن يفتحوا بلادا يونانية أخرى في غرب بلاهم ، ويقيموا
قنطرة بين هيلاس القديمة والعالم الحديث .